أولاد مزيونة

الكتاب : أولاد مزيونة (رواية)

المؤلف : غريب عسقلاني

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٠٩

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/٥٠٢٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 6284 - 79 - 1

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢)- ٦٤/٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٢)

www.shams-group.net

أولاد مزيونة

رواية

غريب عسقلاني



عن الصبي طه و النورية نرجس

قيل في الغرة:

هي بنت بكر مليحة موصوفة من عصبة القاتل، تُعطى زوجة لواحد من عصبة القتيل، تعيش في كنفه بدون حقوق، حتى إذا أنجبت ذكرًا ومرّ عليه الحول، تذهب به إلى مجلس القوم وتقول:
- ها قد جئتكم بولد من صلبكم يعوض فقيدكم.
فتخير بين البقاء على ولدها زوجة كاملة الحقوق أو العودة إلى أهلها.

وقيل إن الغرة تُعامل عند كرام الناس معاملة الحرائر الماجدات فهي سفير محبة ووئام وتوثيق عرى النسب بين العائلتين، وموقعها يقضي على شهوة الثأر ويقتل الضغينة في النفوس.

لكن الغرة عند أرذال الناس تُعامل كأمة خاطئة، ينفث فيها الزوج سموم حقده ويطبع على بدنها غله المكبوت والعياذ بالله.

(١)

انحسر ثوب صفية عن رمانة الساق، أخذه لحمها الوردي، وزارته رجفة دفء بعيدة، تعوذ واستغفر وعض على الذكرى.. داهمه العرق.. لحظة كشف! أم أسئلة حيرة انكشفت مع لحم المرأة التي عاهدها أن تكون أخته، فرجمت به ولم تبال أمام الحاجة؟..

هو ذات اللحم الذي داهمه البلوغ عليه، ليلة تدور القمر بدرًا، وشهد على الصبي كيف فقز إلى الرجولة في رفة بدن.. كان القمر ينشر ضوءً لطيفًا، وأصابع المرأة تجوس عند منابت شعر رأسه، تحقنه بخدرٍ لذيذٍ يأخذه إلى سحر لم يعرفه من قبل.. و"صفية" المنهمكة في تقطيب روسيات الوسائد.. هل صامت بعد رحيل وليفِ روضته وذاقت رحيقه.. زاغت الإبرة عن الكشتبان، شكت إصبعه، عض على دمه النافر.. ساخن دمه.. حدث نفسه: "كيف يصوم هذا اللحم عن شهواته ويعيش صقيع الوحدة؟" وهل عثرت نرجس على من يمتطي بدنها ويروض شهواتها، ويتعرف على إيقاعاتها..

وجد نفسه يسأل في حكاية يعرفها ولا ترغب صفية الخوض فيها:

- لو قبلتِ سلفكِ لوفرت المرمطة في البيوت، وربيت عطا الله في كنف عمه؟

رمقته معاتبة، رأى طيف دمعة تصعد إلى بياض العين.. تشاغلت بضرب كوم القطن، تنفض عنه الشوائب والتراب، تهيئه للندف.. قالت:

- رجلي كان سبع رجال، وصفية لا ترضى بنصف رجل.

وتؤكد موقفها:

- وعدني أن يطلق زوجته قبل أن يدخل بي.

حيرته امرأة ترفض من يريدها وهي في أمس الحاجة إلى معيل وسند:

- الرجل يريدكِ وأنتِ ترفضين!

- كيف أعيش مع رجل تهون عليه العشرة؟!

رقصت على فمها رجفة حاجة، ودب الرعب في أوصالها، "طه" لم يقترب من شؤونها الخاصة منذ عملت معه، وأمضت النهار تختلس النظر إلى أصابعه بحذر، تقرأ سحنته التي لم تستقر على حال..

وفي الحكاية..

أن طه أمضى النهار ساهمًا شاردًا، وخانته الإبرة أكثر من مرة، ولم يسعفه الكشتبان النحاسي العريض حول إصبعه، وأن دمعة غافلته وهطلت على وجه اللحاف فافترشت عين الطاووس وعصفت بها، وتركت بقعة ملح ندية لم تقهرها شمس النهار، ما جعل العروس صاحبة اللحاف تقف مبهوتة تسأل:

- من أطفأ عين الطاووس؟

رسم طه ابتسامة كسيفة وراوغ:

- دمعة الفرح يا عروس، تسكن عين الطاووس.

زغدته أم العروس كي لا يتمادى:

- عين الطاووس، أم عين المنجد.. لا تَشبح عقل البنت يا طه.



(٢)

طويل أبيض مثل ضابط تركي، بهي الطلعة عيناه مكحولتان كحلاً ربانيًا، عُرف عند الرجال بالمكحل والمقدسي والمغربي والقوال والمركوب والممسوس، وعُرف عند النساء بصانع المواويل، يلعب الموال على لسانه وكأنه بعض ريقه، ينفلت منه في مواسم الحسين ووادي النمل، وزفات العرسان، ويسكن في الصدور.. يصبح الموال حكاية، في أي بيت ولد؟ وفي فرح من قيل؟ وعلى من النساء وقعت عين طه قبل أن يطلقه؟

والحكاية تفرخ حكايات، والحكايات ترسم سيّر وتواريخ، تشعل شهوات النساء، وتثير الجدل في المقاعد والمضافات وقاعات الأنوال، وتطلق الغمز واللمز على المقاهي.. الكبار لا يرون في الأمر غرابة على شاب تغرب وتقلب مع الدنيا ودار، "شاف وعاف"، طفش صبيًا ورجع رجلاً، سره في صدره، وفي المواويل التي تعيد سيرة امرأة خطفته وعذبته ولحست عقله..

وتقول الحكاية :

ما بين فواصل الصبا ومدارج الرجولة، اعتاد الصبي طه اعتزال الناس، يقضي ليالي الصيف ساهرًا في الكرم يحدق في السماء، ويعد النجوم ويتابع رحلة القمر، ويعجب من دبيب يفوع في

صدره يوشوشه بكلام لا يشبه الكلام، يزوده بخدر لذيذ، وشهوات لا يستطيع التعرف عليها، وأن تلك اللغة زاد حضورها منذ أقامت النورية نرجس قشعتها بجوار الخص عند طرف الكرم.

وقيل إن البلوغ أدركه ليلة تدوّر القمر بدرًا، وأن النورية أشارت له راغبة فاستجاب كالنائم، وتوسد فخذها العاري فرأى القمر مطبوعًا عليه، والتبس عليه الفعل.. جذبته من ثيابه وأسكنته بين فخذيها وأخذت فمه إلى فمها فانهمر، وبكى، وعند بزوغ الفجر أخذها؛ أو أخذته؛ إلى عب التينة، ومارسا الفعل حتى الارتواء، ودلقا على جسديهما جرة ماء بارد، فارتجفا واختفيا.

وقيل إنه عُثر في القشعة على صينية من التوتياء الرخيصة، مرسوم عليها بحجر الجير رأس قلب، كتب على فلقته اليمنى "طه"، وعلى اليسرى "نرجس".

وأشيع أنها جنية تبدت للصبي في هيئة غجرية، سحرته وعادت به إلى بلاد الجان في الأرض السابعة، وأنجبت منه بنات مثل القمر، يرضعن أسبوع، وتكتمل أسنانهن بعد شهر، ويصبحن بعد حول نساء بالغات، يحرقن شعرة من ضفيرة أمهن فيصعدن إلى دنيا الإنس نوريات في صورة نرجس،ويعدن إلى مملكة الجن متبوعات بعرسان مثل طه الخالق الناطق.

وطالت غيبة طه، وفرخّت الحكاية أخبار طبّال يتبع نورية في حارات يافا، وحيفا، وطبريا، وأكد شهود عيان أنهم رأوه، ولم يتحدث لواحدٍ منهم، ولم يتعرف عليهم، وأن عينيه لا تفارقان خلخال النورية ودبيب قدميها على الأرض، وكأن أصابعه يحركها جنِّيٌ ينظم إيقاع قدميها على الأرض، وأنه يتبادل مع الراقصة لغةً خاصة لا تخطئ الإشارات.



(٣)

...وفي ربيعٍ متوتر،انخضت البلاد، وتغيرت طباع العباد، وحطت الرحال بنرجس وطه في القدس، وأقاما عند نورية عتيقة تقيم في أطراف حارة المغاربة في بيت من حجر، لا يرافقها رجل أو ولد، لا تشعل كانونًا ولا تنفخ كيرًا، لباسها مزيج من ثياب المقدسيات المحتشمات وهلاهيل النور، تطبع على خديها قرصين من حمرة فاقعة في الليل والنهار، لبانتها لا تغادر فمها إلا عند الأكل.. تشعل أرجيلتها على عتبة الدار، وتستقبل زوارها من أفندية وشطار وأصحاب عربات وحناطير وسياح، وبهاليل وبعض مجاذيب الحرم.

جاء ربيعٌ كسيف على غير ما توقعت نرجس، فقد حل الكساد، وتتالت الأحداث الدامية عند حائط البراق، ما تنطفئ نارها حتى تشتعل دون ميعاد أو توقيت، خطفت الأحداث الأرواح، وأجلت الأفراح، وشكمت الفرفشة والزهزهة والصبابات، وغاب صوت الطبل والرق والعود، ورنة الفقاشات، ونواح النايات، ولاحت نذر صيف سيأخذهما إلى التسول، فاختارت نرجس أهون الشرين، وأطلقت طه يبحث عن عمل بعد أن تطور تبرم المضيفة إلى مناوشات تنذر بمعارك قادمة تكون الخسائر فيها فادحة.

جاب طه حارات المدينة، دار حول الحرم، وقطع طريق الآلام صعودًا وهبوطًا، يخرج من أبواب القدس مع الفجر يمسح مناطق الجوار والضواحي القريبة، ويعود بعد المغرب، يتسلى بعدّ بلاط الطرق، وإحصاء المطاعم والمخابز والحمامات والأسبلة، يدخل الدار متسللاً متحاشيًا وجه المضيفة، ويصمت أمام آثار معارك نشبت في غيابه، يغفو ويصحو على صراخ متبادل، سرعان ما يتطور إلى سباب بلغة لا يعرفها، يجافيه النوم ويطرده المطرح من جديد.. وتدس نرجس في عبه رغيفًا وشيئًا من غموس.

وفي يوم توقف أمام دكان عجوز قليل اللحم والعظم، على سمرة وقفت عند حدود السواد، يتخذ قرفصة عجيبة، يتكئ على إليته، ويضرب بمدقة من خشب البلوط وترًا مشدودًا على قوس من خيزران ثخين، فيما ساعده يحرك القوس صعودًا وهبوطًا، في الصعود يلامس الوتر سطح كومة من القطن ينتش منها شيئًا، وفي الصعود ينثر الوتر ما نتش غيمة بيضاء مثل ندف الثلج تهبط في فضاء قريب. عجب من جلد الرجل على القرفصة، وحيّره الوتر الذي يصدر نغمة كلما هوت عليه المدقة.. خيل له أن المدقة ترض لحمه فيئن عظمه، ويُحرك فيه شجن قديم يعود به إلى الكرم وعب التينة، وخيل إليه وجه أبيه ووجه أمه يطلان عليه من سحابة القطن، وأنه يرى بياض عينيهما على حمرة مغمسة بدمعٍ ودم.

هاج صدره ولم يتمكن من حبس ماء عينيه، ومضى يخب في الدروب حتى ساعة متأخرة من الليل، وعندما رجع كانت المضيفة تقف له:

- رجالنا لا يتصرمحون في الدروب حتى آخر الليل.

- كنت أبحث عن عمل!

- وهل وجدت من تعمل عنده؟

- لا..

- ولن تجد، من يقيم في هذه الدار لا عمل له خارجها، لنا حرفتنا وللناس حرفهم.

- ولكن الوقت كساد؟

- رجالنا لا يتحملون مسؤولية الكساد، النساء يتدبرن الأمر، ودلوعتك نرجس تعرف ولا تريد..

أدرك طه سر الخصومة بين نرجس والمضيفة وحاصرته عيون رواد الدار فغطس في عتمة مذهلة، كيف تتدبر نرجس الأمر؟ لا أفراح ولا مواسم، والحال حداد، ودم، وقلوب مفقوءة..

وأمضى الليل يحدق في السقف تركبه قشعريرة، لم تطردها نرجس التي تكومت في حضنه عارية ساخنة تلوك شعر صدره، تسأله:

- ترتجف وأنا في حضنك؟!

- ماذا تريد منكِ صاحبة الدار؟

- لا تهتم.. هذا أمر خص نساء النور..

- إذن تريدكِ أن...

- اسكت..

سكت.. وصلى الفجر حاضرًا في الحرم، وانطلق ينصت لوقع قدميه على بلاط الطريق، ويشاهد كيف تدب الحياة في المدينة، وكيف تعبق الأمكنة بروائح الحمامات والمخابز والمطاعم. حتى إذا صار الوقت ضحى وجد نفسه أمام دكان المنجد، والرجل يندف القطن، أنصت.. نغم مثل دعاء الفجر.. تساءل: كيف يلعب المنجد ويأتي بالنغم الذي يريد؟ أي سر في هذه الآلة الفقيرة إلا من حبل ثخين مشدود يتلقى ضربات مدقة ثقيلة فيوزعها شجنًا، أو فرحًا.. هل هو وجيب الرجل، أم هي طاقة الوتر؟!

التفت إليه العجوز، وحياه بابتسامة مرحبة وواصل العمل.. شعر طه بالألفة وقال على خجل:

- هل تعلمني ما تعمل؟

عاينه المنجد من قمة رأسه حتى أخمص القدمين، وقف عند عينيه فأدرك رجفة تضرب كيانه الشاب، ناوله القوس ودس كفه داخل المساكة وثنى أصابعه على ظهر القوس، وناوله المدقة باليد الأخرى قال:

- اضرب.

قرفص طه، ومد القوس أفقيًا على استقامة ذراعه، اهتزت قعدته فتشبث بعود القوس وضرب، اختل توازنه وهبط على مقعدته، ضحك العجوز مشفقًا ومحبًا:

- قعدة المنجد تكون فيها الساق مثنية، والارتكاز على الإلية والظهر معتدل، والضربة الأولى عند ملامسة الوتر سطح القطن، والثانية عندما يُرفع القوس إلى أعلى.

فعل طه، لم ينتش القوس هبوة قطن، والتف القطن على الوتر، تناول العجوز القوس وأسنده إلى الجدار، وأشار له بالجلوس إلى جانبه.. أخذ يده وقرأ خطوط كفه، تمتم:

- عاشق أنت وغريب؟

وطفحت الدموع على وجه العجوز، وانجلت سمرته عن خلقة مشوبة باحمرار خجول، نظف الوتر من لفائف القطن، وضربه بالمدقة فأصدر صوتًا خشنًا مبحوحًا، حزق مسمارًا في مقدمة القوس، وضرب فأصدر الوتر نغمًا رفيعًا يهيج بذرة القلب. وعبرت طه دقات بعيدة سارت مع دمه في ليلة ما، وتحولت إلى لهاث على فخذ امرأة فاض لأول مرة على لحمها، وها هو اليوم أسير رجل يقرأه ولا يعرفه، ما الذي قرأه في الكف.. وأخذه البكاء إلى نهنهة لم يسيطر عليها، فضمه العجوز إلى صدره مثل طفل:

- تذكرت من لا ينساك يا ولدي؟

- أخذت الدنيا الصبي الذي صار رجلاً، نأت به الغربة ولم يطأ الكرم.

- لا يمنع حذر من قدر، تصحو من الغيبوبة وترجع إلى طينك الأول، فالدنيا غول قوته الأيام وأعمار البشر.

- أعود بنورية؟!

- كلنا عباد الله، أنت في الاختبار وهي في الاختيار.

أطرق.. هل بعدت المسافات وفات ميعاد العودة..أدرك العجوز مكابدته، قال:

- هون عليك يا ولدي، استر لحمها عن الناس، وخذها على سنة الله ورسوله.

وفي الليل توسد فخذها فرأى وجهه مرسومًا عليه، عبثت في رأسه، نفرت ذؤابات شعره، عض قلبه.. لهث ولهثت ولم تأخذه إلى رجفة، لحست كفه وغسلته بريقها فبقت عيناه دمعًا واجتاحه جنون فيض، نترته عن لحمها، وسـألت صارمة:

- من أخذكَ مني يا طه؟

- أنتِ يا نرجس

- ماذا وراؤكَ اليوم يا طه؟

- لحمكِ لي، رقصكِ لي، لم نعد راقصة وطبال، نكون زوجًا وزوجة على سنة الله ورسوله.

- وأين المستقر؟

- داري تنتظر.

- وهل أخرج من جلدي وأنا من سلالة تملك الدنيا ولا تملك المقام.

- مضيفتنا استقرت في بيت حجر وعرفت لها مقام.

- أو لم تدرك بعد ما بيني وبينها، هي تركت ظل القشعة لتصبح قوادة.

- والذي بيننا يا نرجس؟

- العشق، أنت تعرف ذلك.

- لكن شهواتهم تفحش فيكِ، أنتِ امرأة مشاع.

صرخت مذبوحة:

- اسكت، كأنكَ لم تعرف العشق بعد.

ألقت الطبلة في حضنه، دقت الأرض بقدمها، رنت خلاخيلها، حركت أصابعها بالفقاشات، وشبت على أطاف أصابعها.. صارت غزالة.. صارت زرافة، ودخلت حالة أخرى، فيما أصابعه ميتة على جلد الطبلة، لم تنقر نقرة واحدة، ولم يزحف فيه نهر العرق مع تورد لحمها، ولم تستقبل مساماته أريج روائحها، كانت روائحها نافذة، وكان هو مقتول. هل مات فيه شيء؟!

توقفت عن الرقص ترتجف بالقشعريرة، تتحول من المرمري البكر إلى حطبة جفت على شمس حارقة.. أنشبت أظافرها أسفل سرته وفحت مثل لبوة مخذولة.

- لماذا كنت ظلي.. لماذا سرقت عمري؟..

مبهوت يتردد السؤال في رأسه.. يؤرقه سؤال: "من منا السارق ومن المسروق".. صوتها صار زعيقًا:

- من أجبرك على دروبي؟

"أي دروب وأنا الصبي الذي عبر عتبة الرجولة فجأة، ورأى الدنيا على مراياكِ، هذا ما قرأه العجوز.. قدري مرسوم على كفي به أدور".

- العشق يا نرجس.

- العشق من جعلك تنقر الطبل إيقاعًا لم أعرفه من قبل، فرقصت لك رقصًا لم أرقصه من قبل، تنقر وجه الطبل فيعبرني من باطن قدميَّ دفق لم أعرفه إلا على يديك.

ارتعشت شفتاه عن صوت لم يغادر بخار لهاثه، يفوع فيه مثل ضجيج ريح عاتية..

"أي امرأة أنتِ، وأي فتى منذور أنا، عبرني سركِ وحيرني فيكِ..أمي أنتِ/ عشيقتي أنتِ/ توأم روحي أنتِ/ كل النساء فيكِ ما عداكِ.. تأخذيني من وجه الطبل إلى باطن قدميكِ، تبرق فيَّ رنة

الخلخال شهوة تركب أطراف أصابعي.. أنقر.. أنقر.. وأعيش الفقد مع الارتواء.. ما الذي فيكِ طيرني خلفكِ ظلاً"..

غفا لا يدري كم غفا، وعلى صوت المؤذن، أو على صوت ارتطام صحا.. حطمت نرجس الطبلة، نزعت عن كأسها الجلد ودسته بين حوائجها، كانت في أبهى زينة، عيناها بحران وسط بحر من كحل لامع لم تضعه على وجهها من قبل، نزعت فردة خلخال عن قدمها، دسته في صدره فوق حبة القلب، وقالت صارمة:

- لم تعد طبالي بعد اليوم يا طه..

- لن ترقصي بعد اليوم يا نرجس؟

نزفت دمعًا أخذ بودرة الوجه فارتسمت امرأة ثانية.. وجه حُفرت فيه أخاديد معبأة بنزف اختلط فيه سواد كحل العين بحمرة الدم عند فجأة وجوم، قالت:

- ارجع لأهلك يا طه.. لم تعد لي.

- أنتِ أهلي..

- ارجع إلى طينك، فأنا من سلالة لا طين لها، وكل طين عندنا محطة سفر.

حمل صرته،لم تودعه امرأة تسكنه، ووقفت له المضيفة منتصرة، ترقص على شفتيها ابتسامة ضاحكة.. تاه في الحواري حتى صار

الوقت ضحى، يمم صوب المنجد، كان الرجل يعطي ظهره للشارع ويضرب كومة قطن بمطرق من حديد.. دهش طه بين الضارب والمضروب قال:

- تضرب الضعيف مثل الولد العاق!

حياه المنجد وعاد إلى العمل، نقل كومة القطن إلى مكان مجاور، وكنس كومة من قش وتراب وهبو قطن.. سأل:

- ما الأخبار يا ولد؟

- هشمتْ الطبل وأخذت جلده، وأهدتني فردة خلخال.

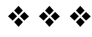
تمتم العجوز

- آه من لؤم النساء.

رد طه:

- نرجس ليست من لئيمات النساء.

- هون عليك، وفرت عليكَ المجاهدة وتركتكَ لاختبار المجالدة.. اقعد.



(٤)

رافق العجوز ثلاث سنين كاملات، أخذ عنه أسرار المهنة وأضاف من عنده، وأخذ عنه أخبار السلف وأحوال الناس في القدس.. وقف على أسرار العائلات وطباعها.. رافقه إلى زوايا الصوفية، وعبر طقوسهم ومارس الهيام على طرقهم، وتعرف على وجد آخر غير الذي عرف.. شدا بالمدائح ونقر الدف فأجاد، واقترب من سيرة آل البيت فهاج فيه جوع قديم، وتوردت فيه أشعار رابعة العدوية، وشذرات البسطامي وبشر الحافي.. وعلى المقاهي طرب لصوت منيرة المهدية، وأنصت طويلاً لشعراء السير الشعبية وانبهر.. لكن أهم ما اخذ عن معلمه التحكم في نغم الوتر، والضرب على مواضع معينة، وكأنه الضرب على حبل القلب للوصول إلى النغمة المطلوبة، ما جذب الصبايا والنساء المجربات، وجعل حضوره طقسًا، وذاعت شهرته في المدينة، بـ"لمنجد العسقلاني" عند النساء، و"أجير المغربي" عند الرجال، يدخل البيوت مُرحَبًا به، تتحلق حوله حريم الدار والجارات منبهرات بأصابعه وهي تجوس في أديم الفراش، ووجوه الألحفة، ينثر الغرز والقطب، الظاهر منها والمخفي فيأخذ أشكالاً تستدعيها قريحته بما يلائم الحال، يأخذه التفكير

ويشرد طويلاً عندما يتعلق الأمر بجهاز العرسان، يشاغل العريس حتى يتعرف على مزاجه وطبعه فيختار ما يوافقه من رسوم، قمر يتوسط أرضية اللحاف أو قطع بقلاوة متناثرة أو صينية أو عصفور وعصفورة أو الطاووس الذي ابتكره فأجاد، رغم أنه يحتاج لوقت أطول لكثرة ما فيه من غرز تتوزع على الصدر والجناحين وعرف الرأس، وتحيّر معلمه في سر العلاقة بين طه والطائر المختال..

حتى كان يوم انشغل فيه المعلم بتحضير مشغولات لزبائن قرويين يردون السوق يوم الجمعة للصلاة والتسوق، وكان من بين المطلوب فراش عريس من عرب القيسية في جبل الخليل، فطلب من طه أن يتفرغ لتنجيد اللحاف، وأن ينجد عليه طاووسًا لم يدخل بيوت الخليل من قبل، على كسوة من أطلس هندي على الوجهين، فأدرك طه معزة العريس، فالمعلم تربطه صداقات حميمة مع بدو القدس والخليل وبيت لحم، قال المعلم:

- عايز شغل يبيض وجهي مع العريس وأبيه.

- وجهك أبيض يا معلمي.

تنهد العجوز وواصل:

- دنيا يا ولدي تأخذ العمر، البارحة نجدتُ جهاز الأب، واليوم ننجد جهاز الابن.

وحدثه عن مغربي شاب زار بلاد الحبيب، ورجع مع الحجاج إلى بيت المقدس ليتمم أشواقه، فالتقى بصبية مثل البدر كانت ترافق والديها الرحلة، سقته شربة من ماء زمزم فخلبته، وغيرت مساره ومصيره، لم يركب البحر إلى المغرب، ومضى مع القوافل صوب بيت المقدس.. وعلى مشارف القدس أهدته منديل معطر، وواصلت المسير إلى الخليل، وبقى الشاب على انتظار الصدف، وحل ضيفًا على شيخ المغاربة في المدينة فأقنعه بالعودة إلى حرفته يتكسب منها معاشه، فطابت له فكرة الاستقرار واكترى الدكان، حتى كان يومًا وقف ببابه شاب ترجل عن فرس شهباء:

- يا منجد، أنتَ المغربي؟

- أنا يا سيد الرجال

جلس الشاب إلى جانبه، وحدثه في تنجيد جهاز لم يدخل جبل الخليل مثله من قبل، وعن قماش لا يوجد إلا في بيوت الأمراء، جهاز يليق بأميرة ويطيّر صيت المنجد، فانشغل المنجد وجمع في الجهاز عادات مصر والشام والمغرب، وطرزت روسيات الوسائد الأخت جانيت على فنون موارنة لبنان، وقد تم نقل الجهاز في سيارة كبيرة، واصطحب العريس المنجد ضيفًا، وفي المضافة فوجئ بوالد الصبية بين الحضور، وعرف أنه أب العروس.

علق طه:

- جبل على جبل لا يلتقي، ابن آدم على ابن آدم يلتقي، يا سلام على الصدف.

- ليست صدفة يا طه.

وحدثه أن العروس تمنت على خطيبها أن يحقق لها رؤية زارتها في المنام ليلة خطبها من أبيها، وهي أن منجدًا مغربيًا في القدس ينجد فراشها.

ضحك طه:

- وهل كانت تعرف أنك ما زلت في القدس؟

- هي أرادت أن تحررني من وعد قلبي، بعد أن حسم النصيب الأمر.

نظر طه في وجه معلمه، فارتسمت صورة عاشق شاب سكنت الدمعة على بياض عينه ولم تجف بعد.. قال:

- وماذا بعد يا معلمي؟

- وجدتُ نصيبي مع بنت شيخ الحارة، وطويت صدري على صفحة لم تطويها الأيام، وكانت أمنية عمري أن يرزقني الله بصبية حتى يلازمني اسم صبيتي، لكن لم يشأ الله.

تنهد العجوز وعاد إلى العمل، وفرد طه أرضية اللحاف، ونثر عليه القطن المندوف ثلاثة وجوه بنفس المحبين، كفف اللحاف وخدد

البرواز، وسرح مع شاب وصبية يتدثران بالحرير، فلم تبرق في رأسه هندسة الغرز.. غرق في الصمت، فأدركه العجوز قبل أن يأخذه الوجوم إلى الغفلة:

- شردت الغزالة يا طه ونسيت اللحاف؟!

- حدثني عن عشق البدو يا معلمي.

- العشق واحد يا ولدي ولكل مطرح عاداته.

- يدي لا تطاوعني على تنجيد الطاووس.

- خير.. وأنت صاحبه!

- الطاووس يفرد جناحيه، يخفي عري رجال المدن الذين ينتفشون في الأسواق والطرقات وعلى المقاهي، وفي البيوت ينكمشون بين أفخاذ النساء، أما عريسنا فمن سلالة تعشق برفة القلب، ولا تعرف البخترة.

أخذه المعلم إلى صدره:

- عتبة الحكمة الخبرة بالنفوس.

- سأرسمه هلالاً يحضن نجمة.

- أصبت فهو كذلك.

وحدثه العجوز عن الفتى الذي قابل صبية عند البئر في أكناف مقام الخضر، قدمت له الجرة فارتوى، وملأت طاس البئر وسقت

فرسه الأشهل، وأخذت رأس الفرس تحت إبطها وتأملت غرته البيضاء، وحدثت نفسها " الأصيل يركب الأصيل لكأن أباك من خيول أبي".

وبعد أسبوع رجع الفتى مع جاهة كريمة، لخطبة ابنة شيخ عرب السواحرة.. سأل طه مأخوذًا:

- هل صدق حدس الصبية؟!

- فراسة البدوي لا تخيب، وكلام الأكابر محسوب عليهم.

وأكمل طه:

- والصبية راغبة.

- العشق قدر،والقلب يسبق اللسان بلغة لا ينطق بها لسان البشر.

انكب طه يركب الحلم، ورسم الفتى هلالاً، والصبية نجمةً بكرًا ترقد في حضن الهلال...

وصار اللحاف في جبل الخليل حكاية.



(٥)

اضطربتْ أحوال المدينة، واحتـدت المناوشـات حـول الحـرم، وعنـد حـائط الـبراق، وظهـر الخطبـاء والأشـياع في المسـاجد والمقـاهي والأسواق، وتمنطق الرجال بالشباري والخناجر والسـيوف والبنـادق، وشكل الملثمون ظاهرة في الليل والنهار وانقسم الناس بين مجلسي ومعارض، وتواترت الأخبار عـن ثـوار في السـهل والجبـل، وعـن مناوشات بين عرب وإنجليز، وبين عرب ويهود وبين عرب وعرب.. وفي ليلة صلى طه والعجوز العشـاء في الحـرم واسـتمعا للـدرس، وأسند العجوز ظهره على عمـود فـذهب بـين الغفـوة والحضـور، وعندما أفاق أمسك بيد طه وقال:

- هل بقي شيئًا لم تأخذه عني يا طه؟
- الحكمة يا معلمي.
- هذه تأتي مع الأيام.

وحدثه عن رؤيا أتته في الغفوة...

"عروس حليبية عيناها بزرقة البحر، هبطت من الجبل إلى السهل، وقفت بباب الدكان وأطالت التحديق في طه، فانطبعت صورتها على وجه اللحاف الذي ينجده، ثم يممت صوب الساحل".

أخذ العجوز كف طه وأطال النظر فيها على ضوء قنديل المسجد:

- عروس تعود إلى الملافي تنتظر العريس.

- ومن تكون العروس يا معلمي؟

- كل ما أعرف أنها من سيروض العاشق فيكَ.

- هي أضغاث أحلام يا معلمي.

- لم تخذلني الرؤيا يومًا، هي أم أولادك، ارجع تجدها على انتظار، وعدني أن تسمي بكر أولادك "السعيد".

- وإذا جاءت بنت.

- إنه ولد، هو السعيد.

من حكايات ساري الليل

... وما زال الناس في الجبل يتناقلون سيرة مليحة موصوفة عاشت في زمن الأتراك وحيدة لأبوين عاشقين، طُلبت غرة لرجل هفية من عصبة بطاشبن أرذال سقط لهم قتيل في طوشة مع أهل المليحة.

وفي الحكاية تزينت المليحة زينة أميرة، وارتدت أجمل ما لديها من ثياب، ودخلت على أبيها:

- كيف تراني يا أبي؟!

كست الفجيعة بدن الرجل وارتجف ولم يحرك ساكنًا..

واصلت المليحة:

- يأخذوني مفشة غل ومنقع سم، وآتيهم بولد من ظهر هفية؟!

صرخ الرج صرخة المبهوظ وهبط ولم يقم، فهجت المليحة واستجارت بساري ليل تصادف مروره في الوادي.

وقيل إن أهلها تفرقوا في شعاب الأرض خوفًا من البطش، وخزيًا من معيار العروس الهاربة.

(١)

اجتاح الوباء البلاد، وحصد الآدميين صغيرًا وكبيرًا، وعزيزًا وحقيرًا، وصار البكاء على الراحلين فسحة أيام أو ساعات من الذهول، لا يدري الخلق من الحامل ومن المحمول، فالوداع يتجدد قبل أن تجف الدموع في الأحداق.

قيل إن الوباء وصل المجدل صيفًا مع تجار هبطوا من الخليل.. وقيل إنه جاء مع السريحة الذين رجعوا من الجليل مذعورين منهكين، لم يأكلوا أو يشربوا..وقيل إن الوباء حطّ وسكن فهجر الناس البيوت والقاعات والمشاغل والأسواق وتوزعوا في السوافي والكروم عند أعتاب البحر، يلتمسون بركة وشفاعة الشيخ عوض، ويقيمون الصلوات الخمس خلف الشيخ البردويل، الرجال في المقدمة يليهم الأطفال والنساء، والبردويل الذي يقيم خصه بجوار المقام كل صيف، لم يردد مقولته المعهودة "كلوا من خير الكروم، ودعوني أتقوت على بركة سيدي صاحب المقام" فالوباء أخذ البركة وشل الحركة، وقصف الفروع عن الأصول، وترك العائلات مثل الأشجار بعد مرور عاصفة جائرة.. حتى إذا شبع الموت من الموت، رحل الوباء وبدأ العناء، وتفقد الناس من بقي، ومن قضى، ومن اختفى

مثل "مزيونة" التي فقدت زوجها العايق "مطلق" تاركًا في حجرها الطفلين حسن وزانة، واليتم وقلة الحيلة لامرأة جاءت من بطن الحكاية، وتركت بعد رحيلها أكثر من حكاية.

ومزيونة غريبة عاد بها مطلق من إحدى سرحاته الغريبة، وقدمها لأمه وأبيه:

- هذه زوجتي مزيونة.

ولم يضف حرفًا، وقبل أن يسأله أبوه عن أصلها وفصلها وبنت من في العباد تكون، أطلقت أمه زغرودة جمعت نساء وصبايا الحارة، وأعلنت عليهن بيان النسب والانتساب، وكانت على حق:

- مزيونة في الاسم وفي الكسم مزيونة، تبارك الله، غاب مطلق وجاب.

وسيج مطلق على أخبار زوجته، وصامت مزيونة عن سيرة ما قبل المقام، وسرح خيال الناس وشطح مع رجل وقع في هوى حورية/جنية، أسرته وتعرف على مفاتيحها، وتبعته على سنة الله ورسوله، لا تفارق الابتسامة ثغرها.

قيل إنها أرملة صديقه في الجهادية،أوصاه بها قبل أن يموت، وأنه عندما وقف ببابها سدت عليه الطريق وسألت:

- متى دفنت صاحبكَ؟

- قبل ثلاثة أشهر وعشرة أيام.
- صدقت.

وأفسحت له الطرق وأكرمت وفادته، وحدثته بما كان بينه وبين صديقه الراحل وكأنها كانت ثالثهما، فاقترب من اللوثة، قالت:
- أتاني قبل شهر وليلة ودعني وطلب مني أن أفك الحداد بعد انتهاء العدة وأن أتطيب بمسكه، وأتهيأ لمن يحمل الخبر.

وقيل إن مطلق غرق في الصمت، ولم يحر جوابًا، وتعلق بفم المرأة كالمخدر، دست يدها في صدره، ونزعت شعرة من إبطه ففاحت رائحة مسك كالتي تتطيب بها، ظهرت الراحة على وجهها وصارت قمرًا، قبلته بين عينيه، قالت:
- أنت الخل الوفي،أنا لكَ إن شئت، وإن شئت أختك في عهد الله.. أتركك حتى تصحو من النوم.

وقيل إن مطلق غطس في النوم مثل جائع ليل، وأن صديقه أتاه باشًا وخبره بمثل ما خبرته وعندما صحا، أخبرته أنه أخذ ما بين الغفوة والصحو رفة عين، قال:
- أنتِ لي
- وأنا لك.

وقيل إن ضبعًا خرج عليه في أحد الوديان، وأخذ يدور من حوله، وأنه أخذ يقدح شرر قداحته ويقرأ ما يحضره من القرآن، فيهرب الوحش حتى ذاب حجر القداحة ونفد الشرر، رشقه الضبع وضبعه، فهام خلف الوحش يتردد صوته بين جنبات الوادي، وفجأة انشقت العتمة عن امرأة تناولت حجرًا وشجت رأسه، وفصدت الدم الخبيث بفمها وقذفته على الأرض، فوقع نصف مخدر ونصف نائم فحملته إلى دارها، وسهرت عند رأسه حتى انبلج الفجر واختفى الوحش. وعندما أفاق رأى امرأة مثل القمر، تمسح عرقه وتتلو آيات بيّنات وتبكي، وقيل في النوم زاره وجه ملاك فصحا على وجه ملاك، وقيل إن اسمها ظل يتردد في صدره وهو في لوثة المضبوع، وأن أول ما نطق سأل:

- مزيونة أنتِ؟

أومأت بالإيجاب، وغسلت وجهه بماء عينيها، قال:

- دينكِ في رقبتي.

- أنتَ رجلي.

وقيل إنه وصل في تجواله جبل الدروز، وتتبع جدولاً يخرج من عين تصب في جابية، وكان الوقت فجرًا، فإذا بامرأة تخرج عليه من الجابية عارية كما خلقها ربها، لم تخفِ عورتها، ولم يركبها ذعر أو خجل، وأنها اتجهت إليه وألقمته ثديها وهمست في أذنه:

- كيف رأيت طعمي؟

فخيل إليه أنه رد عليها وهو على يقين أن لسانه لم ينطق بحرف:

- من أنتِ؟!

وقيل إن أمها كانت تتبعها منذ تلبستها عاهة السير ليلاً وهي نائمة، ورأت ما كان بينهما، فجذبتها من شعرها وعادت بأبيها وإخوانها العشرة، فخيروه بين الموت ذبحًا وبين الهروب بها عندما يجن الليل،وأن لا يظهران في الجبل بعد ذلك، ففعل وعقد عليها على دين الإسلام في حيفا، ولم تعد للسير نائمة بعد ذلك.

وقيل.. وقيل.. ومطلق لا يعلق، ومزيونة تعلق الابتسامة على شفتيها إذا سألتها إحداهن وتهمس:

- كلنا أولاد حوا وآدم.

وقيل إنها باحت بسرها لصديقتها الوفية صفية قبل أن تختفي.



(٢)

رحل الأتراك وجاء الإنجليز، غابت سير وحضرت سير، وبُدل الوالي بالمندوب السامي، واختلطت على الناس الأحوال، وشهدت البلاد بعض الهدوء، وعاد الناس إلى الحقول والأسواق والأنوال، وجُلبت البضائع من الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، وحملت المراكب مع البضائع أفواجًا من اليهود، تناثروا وأقاموا في البلاد، وأقاموا التجمعات التي سُميت مستوطنات، وحدثت المناوشات ردًا على تستر الإنجليز على القادمين، وسادت المجالس أحاديث جديدة عن أفعال جديدة تحدث في الجوار، وعاد السريحة والتجار بمثلها من السهل والجبل، وانتشرت قصص عن بيع أرض لليهود، وعن سماسرة وتجار طقّ فيهم عرق الحياء، وقف لهم يوسف تميم شاه بندر تجار المجدل، الذي ظهرت عليه النعمة بعد الحرب، وقيل إنه جمع السحاتيت التركية الفضية وسكبها وباعها في البورصة، وتربع تاجرًا أصيلاً امتدت تجارته من حيفا حتى غزة، وأعلن مع كبار تجار البلد أمثال الشريف وأبو شرخ وأبو خضرا والشيخ عمر، أن لا بيع لغير مجدلاوي أو عربي مقيم في المجدل، حفاظًا على أراضي البلد. وبادر المقتدرون على حفر الآبار وزراعة

الحمضيات، فانتشرت البيارات واستوعبت العمال الفائضين من البلد والقرى المجاورة، ما حفز الكثيرين على الإقامة الدائمة في البلد التي سارت نحو التحول إلى مدينة صناعية زراعية كبيرة، يردها المتسوقون من كل الأنحاء بالبضائع والحكايات. وعادت مع الحكايات سيرة مزيونة.

قيل إنها لاذت بمختار قرية في راس الجليل، فأجارها وأسكنها في بايكة في حوش داره،تكسب قوتها من عملها في خدمة العائلة، وقيل إن الرجل اتخذها خليلة يتسلل إلى فراشها بعد أن تنام الدار، وقيل إن ابنها "حسن" غدا شابًا يسرح بأغنام القرية مع راعٍ مقطوع اتخذه ولدًا، وأن الطفلة زانة تدورت صبية أخذت الحسن عن أمها، وروي إن مزيونة حلقت شعر ابنتها عندما طقّ بزها، ودهنت رأسها بالقار، وحبستها في البايكة أسبوعًا، وخرجت بها على الناس وقد لفت رأسها بعصبة سوداء، وأشاعت في القرية أنها مسكونة، وأن قتيلاً خرج عليها في العتمة، وعندما سألها سليمان الأمر طفحت دموعها:
- نحن غرباء ومقطوعون وظهر أخيها لا يحمل عارها، والبنت مليحة ومطموع فيها.
دق الراعي نبوته بالأرض، وقدحت عينه شررًا، قال:

- زانة زينة بنات البلد، تفرح بشبابها وتجدل ضفائرها، ومن يعتدي على ابنتي وابني رأسه تحت مداسي.

وقيل إن حسن أخذ عن سليمان الراعي أسرار الرعي والمراعي، وخبر سلالات الأغنام والدواب، وميّز بين الأعشاب النافع منها والضار، وما يصلح للأكل وما ينفع في الطبابة، وتعلم كيف يقتفي أثر الثعابين، وكيف يخرجها من جحورها ويقتلها، وميّز بين أثر المرأة والرجل، وشاعت مهارته في توليد الشياة، وصيد الطيور، وأن أهم ما أخذه عن سليمان الضرب بالنبوت وشل حركة الخصم، وحفظ أسرار الرجال الذين يلجأون إلى المغر بعيدًا عن عيون الحكومة، وينصبون الكمائن لحراس المستوطنات.
وعُرف عن حسن الميل للصمت والتأمل، ورفض الهبات والهدايا، ولكنه لا يرد هدايا سليمان لأمه وأخته، وأنه يناديه يا أبي، وأن مزيونة تعلق على ذلك راضية شاكرة:
- الأب من ربى وعلَّم.

ورُوي أن أحد أحفاد المختار اعترض زانة في الوعر وقرش بزها، فوصلت صرختها إلى أخيها حسن، فهجم على الشاب وطرحه تحته وشبع فيه ضربًا وكاد يقتله، لولا تدخل سليمان الذي كان يراقب الأمر بتحفز، ولما علم المختار بالأمر سأل سليمان:

- أيرضيك أن نكسر خاطر غريب ضعيف لاذ بنا؟
صمت سليمان ولم يحر جوابًا، فهو أخبر الناس بدهاء المخاتير والأعيان وحنكتهم، وبعد صلاة العشاء أمّ المضافة أعيان ووجهاء البلد، وأودعهم المختار أمانة رد الحق لأصحابه، وقام وأمسك بيد حسن وقال:
- يا حسن ولدنا تطاول عليك، فاطلب حقك يا بني.
بُهت حسن، وهو من قطع النهار يفكر في مغادرة البلد مع أمه وأخته، تحسبًا من بطش المختار وأولاده، طاف بعينيه على الحضور، وتوقف عند ابتسامة هازئة على فم سليمان، فيما واصل المختار:
- حقك عندي يا حسن.
وطلب من حفيده أن يقبل رأسه، ويعتذر أمام الحضور..
وفي اليوم التالي سأل حسن سليمان تفسيرا لما حدث:
- حتى لا يقال أن حسن المقطوع تجرأ على ابن المختار، هل فهمت يا ولدي كيف قلب المختار الأمر، وجعل المضروب ضاربًا.

وقيل إن حسن صار يقضي ليال طويلة في صحبة رجال المغارة، ويخرج معهم ويتدرب على سلاحهم، ويستمع لقائدهم "خضر أبو العلا" بشغف.



(٣)

وفي الحكاية:

خرج إبراهيم بعد صلاة الفجر لنصب عدة السداة، تتبعه زهدية على رأسها سل المواسير، وعلى جنبها زوادة الضحى، ففوجئ بـ"الظابوس" ينصب العدة مكانه،بدأ الأمر عتابًا وتذكيرًا بالأصول، وسرعان ما تطور إلى عناد وعراك، فطوى إبراهيم خصمه تحته، وحشى فمه بالتراب، وشحطت زهدية زوجة الظابوس مثل عنزة عجفاء.. وتدخل الشغيلة وفصلوا ما بين الرجلين، وداری الظابوس خيبته بالصراخ والسباب وكشف الحسب:

- إذا كنت راجل روح أستر على لحمك بنت أخيك الداشرة في بلاد الناس.

لم يرد إبراهيم، ولعن في سره اليوم النحس.. مزيونة تعود عارًا ومعيارا، جعلت أضعف الناس يتجرأ عليه "الله يرحمك يا مطلق، رحت وخلفت وراءك الفضائح".

جمع عدته وغادر المكان ومن خلفه زهديه تبرطم، وتلعن سيرة مطلق ومزيونة التي كلما غابت حضرت مثل اللعنة، فح في وجهها:

- أسكتي كله من لسانك الفالت، وقصصكِ الماسخة.

- أنا إيش خصني، كلام الناس، وما في دخان من غير نار.

ترك حمله عند باب الدار، وتوجه إلى كبير العائلة يخبره بما حدث.. أطرق الكبير وزفر بحرقة المطلوب:

- ألسنة الناس مطارق نار، مزيونه غريبة وعارها على أهلها إذا كان لها أهل، لكن البنت عارها علينا إن غابت أو حضرت.

- والعمل يا عمي؟

- الأولاد أولادك، والموضوع في حجرك، والله يعينك على حملك، لازم البنت ترجع نسترها، ونردم على القصص والحكايات.

أسقط في يد إبراهيم "فلا بد مما ليس منه بد" وراح يتسقط الأخبار، حتى كان يومًا جهز زوادته وبضاعته وركب الحمارة القبرصية العالية ويمم شمالاً، لا يفارقه صوت مزيونة المفجوعة:

- خذني، ولِمْ أولاد مطلق، واسترني.

- آخذكِ ضرة لزهدية.. أنتِ ناقصك هم!

- خذ عليَّ وعد وعهد، أنا أختك في الدار وزوجتك قدام الناس، أنا مقطوعة ارحمني من كلام الناس.

- أختي وزوجتي، هذا لا يقبله دين ولا شرع.



(٤)

قصد إبراهيم المضافة، استقبله المختار باشا مرحبًا، رجل مديد القامة يزحف نحو التسعين على غير انحناء، يبدو عليه عز الحسب والنسب، وعلى العادة لم يسأله حاجته إلا مساء اليوم الثالث، ولكنه أدرك أن الأمر يتعلق بمزيونة، فقد أغلقت عليها وابنتها باب البايكة منذ حل الضيف، وانقطع حسن عن مجلس الديوان، والشبه الواضح بين حسن والضيف، قال إبراهيم:

- الأمانة عند الأمين يا سيد الرجال.

- كل فرع يعود لأصله، الطفل صار رجلاً، والطفلة صارت عروس، والأم مستورة تعيش من كدها وعرقها، غدًا بعد صلاة العصر نتحدث في الأمر.

وقيل إن المختار تحدث مع مزيونة، فردت الأمر إليه:

- أنتَ مجيري ووكيلي يا مختار، هو عمهم صحيح، لكن أنت من رباهم وحماهم.

- الخير يقدمه الله يا مستورة.

في المضافة تجمع أبناء المختار وأحفاده وكبار العائلة، ونودي على مزيونة وأولادها، قال المختار:

- يا بنت الناس، جئتِ مستجيرة، والحمد لله لم يطالك ضـيم، والآن عم أولادكِ يطلبـكِ للعـودة إلى دارك معـززة مكرمـة، والأمـر لـكِ ولأولادك.

دفعت مزيونة حسن وقالت:

- أنت إلى جانب عمك يا ولدي.

اندفع حسن إلى عمه، تحاضنا واختلطت الدموع، وكشفت مزيونة رأسها وحلت جدائلها:

- حسن وزانة إلى أهلهما، أما أنا أعود معه حلاله على سنة الله ورسوله.

أطرق إبراهيم يدق السؤال القديم في رأسه... "زوجتك أمام الناس وأختك في الدار".

وقد جاء في الحكاية:

أن الرجفة أخذت سليمان المقرفص بجانب الوجاق، وأن الصباب اهتز في يده ودلق بعض القهوة طشت على جمر الوجاق بخارًا مغمسًا بالهيل، فيما النداء يتردد في رأس إبراهيم: "لمني علشان أولاد أخوك".. وها هي ما زالت ريانة رغم الهالات السوداء حول عينيها.

أخذ حسن إلى صدره، يستجير به منها، شد على زنده وحدق في وجهه فأطل عليه وجه مطلق حزينًا ومعاتبًا، وتساءل أي الحكايات ستكون بانتظارها لو رجعت ضرة لزهدية، قال:

- أخاف قلة العدل، عودي إلى دارك، أخت معززة مكرمة.

ردت مزيونة:

- الدار لحسن وزانة، وأنت يا إبراهيم عم أولادي، هل تكون وكيلي وتزوجني من سليمان الصالح؟.

- هي رغبتك أم ستر حال؟

أطرقت، وتجلت الآية في عينين انسحب من حولهما السواد، وتورد الوجه على حمرة خجول.. قالت:

- من حفظ أولادي يحفظني.. وأنا راغبة على شرع الله.

وقيل إن سليمان دار بالقهوة وبدأ الدور بإبراهيم، شرب إبراهيم بامتلاء ومد فنجانه مرة ومرة وأخذ سليمان إلى صدره ووشوشه: "أختي أمانة في رقبتك".

وقيل إن المختار طلب من مزيونة أن تحدد مهرها، ودفعه نقدًا من ماله الخاص،مع كسوة عروس وعريس، وكسوة كاملة لحسن، وصندوق لزانة يحتوي على جهاز عرس كامل.

وفي الحكاية أيضًا:

أن الوسواس أخذ زهدية في غياب زوجها، فأشاعت أن مزيونة تقيم مع قواد قهقير، وأنها عندما رجع إبراهيم مع أولاد أخيه وقفت بباب الدار، وصرخت:

- أولاد الداشرة لا يدخلون بيتي.

فهبدها صفعة أكلت وجهها:

- اخرسي.

ونادى على ابنته حسنة:

- خذي بنت عمك وسلمي على خطيبك حسن.

فقامت زهدية على الفور وأطلقت زغرودة ترددت في أرجاء الحارة، ووصلت إلى الحارات المجاورة...

ولم تعد بعد ذلك على سيرة مزيونة إلا بالخير.



عن المقامات والأحوال

وبقيت صفية على ولدها، وصامتْ على رجفة بدنها، حتى وقعت عيناها على طه ينجد لحافًا في دكانه، فاع فيها دبيب رغبة عارمة غسلها بالعرق والخجل، فأغلقت عليها دارها لعدة أيام لم تفارقها صورة فرحات الغريق، وفي ليلة زارها في النوم فبكت بين يديه:

- سامحني يا فرحان.

- بالحلال يا صفية، والحي أبقى من الميت.

وقيل إنها انطلقت مع الفجر إلى مقام الحسين تطلب الشفاعة، فوقف لها المبروك وسد عليها الطريق وصاح:

- مدد يا ولي الله مدد.

نكست رأسها مذعورة، فصرخ:

- لا تهربي.. باله مشغول بغيركِ يا مسكينة.

- ماذا أفعل يا سيدي؟!

- هو سندكِ إذا آخاكِ.

وعملت صفية مع طه بعد أن عاهدها أن تكون أخته.

(١)

عاد طه.. غريب عن الدار والحارات والدروب، غريب عـن صـحبة الطفولة والصبا، أقرانه توزعوا فركبـوا الأنـوال أو دفعـوا سـكك المحاريث في الكروم والحقول، أو من أخذهم السوق للبيع والشـراء تجارًا أو سريحة يجوبون أسـواق القـرى والمـدن، تزوجـوا وتعلـق في رقابهم الزوجـات والعيـال، لا شـيء بينـه وبيـنهم غـير حكايـات وذكريات لم يعد لها مكان في رأسه، عاداتهم وطبـاعهم تختلـف عـن عاداته وطباعه، هل هي الحرفة التي أخذت وقته بين نسـاء البيـوت، أم الغربة التي أخذت منه حتى لهجة الكـلام، وغيبـت عـن لسـانه الكـاف المجدليـة، واسـتبدلتها بلهجـة القـدس، وبعـض مفـردات الجليل، ومطة أهل الخليل، وكأنه خارج من كل المطارح إلا مطرحـه، ما حيّر الناس فيه، فأطلقوا عليه طه المقدسي، وطـه الغريـب، وطـه الغاوي.. هل وضعوا الحدود بينهم وبينه، فميزوه؟..

في النهار يجوب الحواري والأزقة، يستعيد الوجوه، يعيد ترتيب الأماكن والكائنات، لا شيء تغير، ولا طبع تبدل غير اليسر والعسر وضربات الزمن، بعدت الشقة وصارت المجدل ملعبًا نشطًا، صارت سوقًا ورواجًا شغل المقيمين، وجلب ناس الجوار فطاب لهم المقام،

فأقاموا وتملكوا، الغزاوي والخليلي والنابلسي، وعمال الأنوال الذين أتوا من الشام وحلب لحقوا لقمة خبزهم، ولم يلحقوا نورية لا مستقر لها ولا ديار..

هل كانت غربته قدر، وهل قدره أن يظل على انتظار تحقق رؤيا زارت معلمه بين الغفوة والصحو؟! لمن يشكو ولمن يبوح ومن يفهمه؟.. حتى صديق طفولته وصباه المجنون بالأحلام مثله "سليم القاسم" هجر البلد إلى يافا، وعمل صبي بقال في شارع إسكندر عوض، ثم مساعد سائق شاحنة، أخذته الدنيا حتى استقر به المقام كاتب حسابات في مطحنة كبيرة في حيفا... وقيل إن أم سليم هجرت الدار في غيابه إلى الكرم، وأقامت في الخص صيفًا وشتاءً، تزرع وتحصد وتعزق الشجر، وترقد الدجاجات على البيض، وتردد المواويل عن ظريف الطول الذي أخذته الغربة، حتى تغرب عن عينيها ماء الدمع.. تهبط البلد يوم الجمعة تبيع وتشتري حاجاتها، وتمر على البيت حاملة للجارات ما تيسر من بيض وكعوب وحميض وخبيزة، وما يجود به الكرم من ثمار، تقبّل صبيان الحارة الذين صاروا رجالاً وفتحوا بيوتًا، تأكل غصتها وتنوح "قلبي على ولدي، وقلبي ولدي من حجر".

تواسيها الجارات خوفًا عليها من الوحدة:

- ارجعي لدارِكِ.. الدار المهجورة تصير خرابة تسكنها الشياطين.

- الدار لصاحبها.. يرجع ويعمرها بأولاده..الدار من غير صغار مش دار.

وفي يوم نادت على صفية في السوق، وأعطتها بعض البيض وكمشة صيصان فقس:

- خذي بالك من عطا الله يا صفيه، بلاش يكبر ويريّش ويطير من حضنك، الدنيا تغيرت.. الأولاد يكبروا ويطيروا.

وفي يوم سد عليها باب الخص، أفندي بالبنطلون والقميص، غرة شليشه مهدولة على جبهته، ومعه امرأة بيضاء مزوقة، ترتدي كابًا، وتتأرجح على كعبها العالي وقد انغرس في الرمل.. أخذته إلى حضنها، وقبلت زوجته، وهطلت دموعها مثل سيل:

- حتى عرسك فرحة عمري يصير في الغربة.. من رقص قدامك يا أحمد، همَ في المدن يرقصوا مثلنا.

وعادت به إلى الدار، وطلت غرفته بالجير، وزرعت عند باب الدار شجرة تمر حنة وشجرة عناب سبيلاً لوجه الله..

ورجع أحمد إلى حيفا، وظلت الأم على عادتها، تصحو مع الفجر، وتكنس حجرته وتنفض فراشه، وتجدد ماء الشربة، حتى لا يفاجئها بالزيارة عطشانا.

وفي يوم هبت ريح العصاري، وعبأت صدر طه برائحة التمر حنة، فأخذته إلى العجوز:

- أهلا برائحة الحبايب.. كأن سليم قدامي.

- إيش أخباره يا خالة؟

- الغربة أخذته يا طه، وصارت زياراته بعيدة، أحمد فليونـة بيشـوفه مرة في يافا ومرة في حيفا، يبعث معه مصاري ويطمئني على أخبـاره، أنا مشتاقة له يا طه.. مش عايزة مصاري، خير الله كثير.

- قولي لأحمد يخبره إني رجعت وقعدت في البلد، يمكن يشتاق ويحن.



(٢)

في المساء يجلس بالقرب من وجاق القهوة، ينصت للأحاديث ومشاكل ومشاغل الناس.. يأخذه لهب الجمر، يصير الكلام رجع صدى بعيد، ويصير العالم ليس له، وفي المقهى عصر الخميس بعد حلة العمال عن الأنوال، وفك الشغل عن المطاوي؛ يجلس بينهم صامتًا، فيما يتناثر الحديث عن طقوس الجمعة، والتسوق والراحة بعد أكلة الأسبوع المفضلة، أما هو فعدته حبيسة الدار، والكشتبان غادر إصبعه، ولم يعد حلية يتميز بها كما كان.. لا ملاذ له غير الكرم، يستلقي عند باب الخص يفترش الرمل ويطارد امرأة خبرها وارتسمت في صدره، وعاد ينتظر امرأة جاءت إلى معلمه في الرؤيا عائدة من سفر بعيد.. من تكون؟ من بنات البلد هي؟ أم من بنات الأغراب الذين حطوا في البلد فصارت لهم بلدًا؟، بنت الميقاتي الحلواني أو جريس الصائغ أو الفران أو مرزوق العطار أو الداقور السروجي؟.. أم هي نرجس تعود إليه جنية في جسم امرأة أخرى، وتستعيد فردة خلخالها؟، من ستتعلق في رقبته وتصبح قدره، والصبايا يرغبن راكبي الأنوال أو دافعي سكك المحاريث، وهو المخير بين جورة النول "قبر الدنيا" وخدمة الكرم، والخروج مع

نجمة الفجر إلى الأسواق على ظهر دابة فوق خرجين "واحد فيه همكَ وواحد فيه دمكَ" يحبس همه ويغلق صدره على مواويل تتخلق يخشى أن يطيرها، فتهبط غريبة كما هو غريب..

يطل عليه وجه أبيه، يوم ربطه في جورة النول يعلمه الترسكة وضبط إيقاع حركة اليدين، وتبادل القدمين الحركة صعودًا وهبوطًا، وحدف المكوك بأطراف الأصابع عند فتح نفس السداة لتلقيم الخيوط، وشد الدف لجمع اللُحمة مع السداة، لم تفلح قدماه وأصابعه في لعبة تبادل الأدوار، ونط المكوك خارج النفس، ولم يضف خيطًا إلى الرقعة، وبخه أبوه لعدم استيعابه أبجديات الصنعة، التي يلقفها المجدلاوي بالعين وبدون تعليم.. ضربه بعد أن تأكد من عزوفه عن النول، واعتبر ذلك فألاً سيئًا لرجل خلق في عائلة نساجين أبًا عن جد... صرخ فيه محذرًا:

- إن ضيعت النول من أولها يجفاك وتسرح بطال مثل مطلق، بلد يأخذك وبلد يرجعك.

وها هو يعود غريبًا عن الناس والكروم والبلد بحرفة من شأن النساء في المجدل ويستصغرها الرجال.. وها هي أمه تعيد عليه السؤال كلما خطفه السهوم وتكالبت عليه سحب الهموم:

- متى تركب النول وتفتح بيت؟

- فات الوقت على النول يا أمي.

- ما حيلتنا غير الكرم، والكرم صغير،حرام تضيع شبابك في شبرين أرض، والنول في دارك من سابع جد، إن ما أغنى ستر.

- النول ليس لي.

تدق على صدرها كل مرة، وفي كل مرة تقول بحسرة المخذولة:

- صدق من قال؛من لا يركب النول من أولها يطرده النول ويتحسر طول العمر.

الله يرحم الأموات، طوال غيابه لا مطلب لأبيه غير عودته حيًا أو ميتًا.. يبكي كل صلاة ويحدث نفسه "هل يعود ولدي؟ هل يدب على الأرض؟ أم هو ميت تحت التراب لا يُعرف له مقام".

وها هي أمه منذ عودته تفتش في البيوت عن كنة تربطه قبل أن تطلبه الغربة من جديد، وفي يوم وقعت على عروس، ناوشته:

- نفسي أفرح وأرقص يا طه وأشوف أولادك.. ابن الصبا لا يعوض يا ولدي.

- عندما يقدر الله ويأتي النصيب يا أمي.

- نصيبك موجود، والعروس وأهلها طالبين رجل يكسب من عرق جبينه.

- سأفتح في السوق دكان منجد.

شهقت وحبست ولولة كادت تفلت من صدرها:

- غبت ورجعت منجد يا طه، ومن ترضى بواحد يقضي نهاره بين النسوان في الدور.

- أفتح دكان وألعب بالقوس والمدقة، ويشوف الناس شغلي وفني.

- الحق نول أهلك يا ولدي، بلاش تطلبك الغربة وترجع مثل مطلق بغريبة تطفش وتترك القيل والقال والمعارة.

- وماله مطلق يا أمي؟

- هواوي ضيع عمره في السرحات والغربة، وعندما هجع وذاق طعم الدنيا طوته الخرساء في عز شبابه.

- ......

هو يتذكر مطلق مثل طيف، ويتذكر مزيونة مثل عروس الحلم.. هل رآها أم هي بدر الحكايات مكحولة العينين على مدار الوقت، لا تعرف العبوس؟ ما الذي جرجرها في ذيل شاب كل رأس ماله بهاء الطلعة، وطيبة القلب، والرقص؟.. لو بقي مطلق حيًا، لكان أفضل من يفهمه ويبث له همه وسره.

تقول الحكاية:

إن مطلق قاطع النول، رغم أنه شغيل ماهر، وتمنطق شبريته، وامتطى ظهر دابته سريحًا في بلاد الله الواسعة، فوصل الشام وباع

واشترى في جبل لبنان، وعشق مسيحية أدخلها أهلها الدير قبل أن تهرب معه، وهرب عاريا من حضن امرأة جفت زوجها في جبل الدروز، وركب بحر بيروت إلى قبرص وتزوج من قبرصية أنجب منها ولدا وبنتا، وقيل إنه مهما غاب يعود، ومهما ابتعد يقترب، يظهر في المواسم ويقضي الليالي على رمال الشيخ عوض يشرب السخام "العرق" ويتعرى كما ولدته أمه، ويطلق المواويل حتى يصير وجهه بلون جبة البندورة، وكأن جنية ترقص على لسانه في عالم آخر.. وعندما يصحو تكون أغانيه على ألسنة الصبايا ودلعوناتة تعمر الأفراح، تداري النساء إعجابهن به، ويتحرشن به فيجبر خاطر الواحدة منهن بموال يفوع في بدنها ويجلب لها القيل والقال عن ما حدث وجرى بينها وبين المسكون مطلق، وكانت أكثر من يتجرأ عليه أم صبحي الداية، التي حضر إلى الدنيا على يديها، تدقه على صدره:

- كيف بتطلع المواويل معك يا داشر؟!

يأخذها إلى حضنه ويقبل يدها ورأسها ضاحكًا:

- والله يا عمتي شيء يركبني ويقول غني يا مطلق يطلع الموال.

- مسكون يا ولد، روح للشيخ البردويل، وانذر يمكن على يده يطفش الجن اللي ساكنك ولاوي لسانك على الفاضي.

أما زهديه زوجة أخيه إبراهيم، فكانت تناوشه:

- الله يجازيك يا مطلق، تأكل مواويل وتشرب أغاني، يـا سـعد مـن تنام في حضنك، مش مثل أخوك قاعد وراء النول للزق والنق ومـد البوز.

يضحك ويلعن في سره النول وأخاه الذي لا يحس بعطـش زوجتـه، ويتمتم "أبوها من بلد رجالها لا يعرفون قيمة نسوانها".

وفي الدواوين والمضافات، يختصر الكبار مطلق وحكاياته بمحبة وشفقة على شاعر "فرفور ذنبه مغفور" مصيره يتزوج وتربطه أم العيال. وقيل إنه غاب في سرحة طالت حولين كاملين، وأن أمه رأته في المنام مسحورًا خاتمًا في إصبع جنية غطست به إلى الأرض السابعة، وتزوجته في مملكة أبيها ملك الجان، وما زالت ترفض إطلاق سراحه وفك أسره. فيما رآه أبوه مضبوعًا يجري وراء الضبع إلى وادٍ عميق، افترسه ولم يبق منه غير عظامه وشبريته، ولكنه رجع وفي ذيله مزيونة، فخيل لأمه أنها الجنية التي زارتها في المنام، ولما تأكدت أنها أنسية، وتتكلم بلسان الإنس أخذتها إلى حضنها وأطلقت زغرودة تعلن عن قدوم كنة للدار.. كنة صبوح "تقول للقمر قم لأقعد مطرحك" كل ما عرف عنها أنها من طير الجبل، وأن مطلق وقف بالمرصاد للأسئلة:

- مزيونة بالاسم والكسم وهذا يكفي.

وعرف عن مزيونة قصر اللسان، وعدم النتش في سيرة الناس، حديثها حلو مع الأهل والجيران، معدّلة ومرتبة، وبيتها نظيف، تتفانى في خدمة حماها وحماتها، تتزين وتتحفف وتنشر شعرها الخيلي في شمس الضحى، لا تهبط البسمة عن شفتيها،تعد أطعمة لا تعرفها نساء الحارة، وما يعرفنه تعده بطريقة متميزة، وعلى رأي حماتها "كنتي تدلل الطبيخ مثل ما تدلل زوجها".

قيل إنها حيفاوية من وادي النسناس، وقيل إنها نصرانية من "شفا عمر" أسلمت وتبعت مطلق، وعندما تسألها إحدى النساء عن أهلها ترد باسمة:

- كلنا أولاد حوا وآدم، المهم فعل الإنسان.

ولا تزيد، فلا تزيد السائلة.

أما الذي شطح ونطح وزاد هي سلفتها زهدية، فأشاعت أنها نورية لا أصل ولا فصل لها، وأن عينيها تشبهان عيني روجينا النورية التي تنصب قشعتها أيام المواسم في ظل مقام سيدي شيخ الظلام، تقرأ الودع، وتبيع الملاقط والمكاحل والبخور. لكن أحدًا لم يأخذ برواياتها، ما أوغر صدرها، فأعلنت العداء سافرًا وقاطعت بيت حماها، وعندما راجعتها حماتها ردت متنمرة:

- ما هي شايفة حالها ملكة قليلة الأصل.

شكمتها العجوز:

- أنتِ إيش حارق رزكِ، إقطعي لسانك عنها وشوفي زوجك مثلها، وكوني أختها مش ضرتها.

ومزيونة لا تعلق على ما يشاع، وتضع حدًا للألسن بكرم ضيافتها، فتقدم العوامة والمهلبية والمكسرات التي يجلبها زوجها من سفراته، وتقضي الوقت أثناء غيابه في شغل الطواقي وتطريز المناديل وكسوات الوسائد والمخدات، يبيعها مطلق ويعود بثمنها خواتم وأساور وحاجات زينة. وفي حضور زوجها لا تغادر حجرتها، تطلق البخور مع رائحة قنديل الزيت ليل نهار.

وفي يوم داعبتها حماتها تشعل فيها الغيرة:

- ما بتخافي على جوزك في بلاد الناس؟

- الراجل مثل الطفل الرضيع، لا يشبع إلا من صدر أمه، ومطلق لا يطيق القعدة.. ولازم رائحة الدار تظل في بدنه، يشتاق ويرجع.

أخذتها العجوز إلى حضنها وقرأت المعوذات، وسألت عن عودة مطلق، قالت مزيونة:

- على وصول، نجمته ضاوية في السماء من يومين.

تحسست العجوز بطن كنتها، فزحفت الرجفة إلى كفها، حدقت في عينيها، أومأت مزيونة فرحة، فانطلقت العجوز تبشر الختيار، فركبته الهمة ورجع بسخلين عفيين، ربطهما في الحوش ونادى:

- يا مزيونة نقوطي عقيقة ولدكِ.

قبلت يده، وقالت ضاحكة:

- وإذا شرفت بنت؟

- تكون مثل أمها وحلال عليها السخلين.

وجاء البكر حسن، وبعد عامين وقع العجوز في مرض الموت وكان مطلق في سرحة طويلة وبعيدة، وعندما اقترب الأجل أمسك العجوز يد ابنه إبراهيم وشد باليد الأخرى على يد مزيونة وأوصى:

- بلغ مطلق أن مزيونة وأولادها أمانة في رقبته، لا يزعلها مهما جار الوقت عليه، ولا يدخل عليها الدار بضرة، وهذه الدار لها ولأولادها، أخوك هواوي ينط القرش من يده قبل ما يحط عليها، ومزيونه غريبة ديار. وأطبق شفتيه، وشقت مزيونة ثوبها في الهزيع الأخير من الليل، وصرخت:

- آه.. ظهري انكسر يا عمي.

ووقعت مغمى عليها، وعندما أفاقت خلعت أساورها وخواتمها ولفت رأسها بمنديل أسود، ولم تضع كحلاً، ولا مس وجهها حمرة ولا بودرة.

وقيل إنها صامت عن زوجها حتى حل الحول وفكت الحداد.



(٣)

واختفت مزيونة..

كان الوقت بدايات ربيع، والناس تجدد قصب الأخصاص في الكروم لملاقاة الموسم، وفي ليلة من ليالي نهايات الشهر العربي خرجت المرأة مع طفليها قبل أن يشق الفجر عتمة الليل، وتفتح النهار وتناسلت الحكاية حكايات..

قالت حماتها "أم إبراهيم" إن مزيونة منذ رحيل زوجها عن الدنيا، لم تغير ثوبه، ولم يلامس الماء بدنها، ولم يخرج عن عرقها رائحة، لفت رأسها بعصبة سوداء ودخلت الحداد وأغلقت عليها بابها، لا تزور ولا تزار ولا تقبل العزاء من أحد.. خرساء تمضي النهار إلا مع أولادها وصفية.. وفي الأيام الأخيرة صارت تنتفض كالملدوغة كلما حضر سلفها يطمئن عليها وعلى الأولاد، تغلق عليها غرفتها وتخرج عندما يغادر الدار، يسأل إبراهيم:

- هل قصرت يا أمي؟!

- أصبر عليها يا ولدي، مقطوعة وغريبة، هي وأولادها أمانة في رقبتكَ.

وعندما صارت العجوز تبيت في الكرم طلبت من حماتها أن لا يدخل إبراهيم الدار في غيابها:

- ليش يا مزيونة؟

- إسأليه.

أما زهدية فقد أطلقت لسانها على الغارب، وطلعت على نساء الحارة أن زوجة مطلق في الأصل جنية سحرت نفسها على صورة امرأة جميلة فوقع مطلق في هواها وتعلقت به وعندما رجعت الأمانة لخالقها بطل السحر ورجعت لصورتها الجنية وهبطت إلى الأرض السابعة في مملكة الجن... النساء يسايرن زهدية بين المصدق والكذب يسألن:

- والأولاد يا زهدية؟

- أولاد الجنية يطلعون لأمهم.

- يعني حسن وزانة كانا مسحورين؟!

تصل الحكاية للعجوز أم إبراهيم، تقضم فجيعتها وتنوح "راحت المزيونة وبقيت المكيودة.. كيدهن عظيم".

وظلت زهدية على روايتها حتى وقف لها الفتى المبروك أبو صبحة في السوق، رقص أمامها وزأر باكيًا:

- حرام.. اربطي لسانكِ عن العفيفة الشريفة.. الله بيسخطك.

- ومن قال لك أنها شريفة وعفيفة؟

بكى أبو صبحة، وأخذ يردد:

- زهديه رايحه النار يا خسارة.

قطعت زهدية لسانها لبعض الوقت وطلعت على الجارات بأن مزيونة لا تستطيع الصوم عن الرجال، وأن الشهوة فاعت في بدنها فلحقت بساري ليل تواعدت معه عند جابية الشيخ عمر، وأخذت أولادها حتى لا يبقى لها في البلد أثر... لكن صفية وقفت لها هذه المرة.

- خافي من يوم الحساب يا زهدية.

- طيب قولي الصحيح يا صفية، ما أنتِ عارفة سرها وما فارقتيها من يوم خبر المرحوم.

وقيل إن صفية باتت عدة ليالٍ عند مزيونة قبل رحيلها، لكن صفية لم تفصح بشيء.



في أخبار العائدين إلى الملافي

.. وتولى "عمران شقورة" قيادة الثورة في المجدل والقرى المحيطة، وكان على اتصال دائم بالشيخ حسن سلامة وعمل على تنظيم شؤون الحياة اليومية في المدينة فكسب ثقة الأهالي، ورشحت كل عائلة رجلين من خيرة رجالها للالتحاق بالثورة ووفرت لهما السلاح والتزمت بمعاشهما الشهري.

ونفذ الثوار بقيادة عمران عمليات ناجحة ضد الإنجليز، أشهرها الهجوم على مركز الشرطة والاستيلاء على الأسلحة والخيول، ومداهمة مركز البريد، واقتلاع خط السكة الحديد في قرية "دير سنيد".

وظل عمران على رأس الثوار حتى أُستشهد في العام ١٩٣٨م مع ثمانية عشر من رفاقه إثناء إعدادهم لعبوة ناسفة، وهي ما عرف بحادثة اللغم الذي شكل فاجعة سوداء.

وقبل النكبة نشط الثوار في المقاومة وشكلوا رديفًا فاعلاً للجيوش العربية، وقدموا الشهداء، وكان ممن سقطوا في المواجهات الساخنة "عطا الله فرحات الحاج".

(١)

ورجعت زانة..

- يا سلام يا دنيا، تروح مزيونه وترجع زانة، والدار هي الدار، تستقبل وتودع.. الله يرجع الغياب، ويرحم الأموات.

أخذت الجدة زانة إلى حضنها، واستنشقت رائحة غابت عن الدار طويلاً، البنت هي أمها، ناقة حليبية على احمرار دونما نمش، وخال أخذته من أبيها يسكن سرة الذقن، وشم رباني ملاوع فيه الغضب مع الفرح، وعينان برموش مثل مظلة من ندى، صامتة ليس على خجل، تشتري ولا تبيع، وتعلق ابتسامة محايدة على فمها، لا تعلق أو تشارك في ثرثرة النساء، وإذا تطرق الحديث لمزيونة ترتجف زاوية فمها، ويرقص خال ذقنها رقصة المتحفز، تجعل المتحدثة تزدرد ريقها وتغير مجرى الحديث.

أقامت وأخوها في الدار، ورافقت جدتها إلى بيوت الأقارب والجيران، ودرجت في أزقة البلد والدروب الموصلة إلى السوافي والكروم، ورأت الذهول في عيون الرجال، والدهشة ومص الشفاة عند النساء والبنات، يتردد في رأسها حديث جدتها للقريبات والبعيدات "من في داره بنت أو كنة أحلى من زانة". وتستعيد قول

صفية: "الورد الأصيل بيخلف ورد، وزانة بنت مزيونة والبطن بستان". وعرفت من جدتها أن صفية كانت لا تفارق أمها مزيونة إلا أيام وجود أبيها مطلق في البلد، وكانت لها مثل ابنتها أو أختها الصغيرة، وهي من جهزتها وحنتها وونقشت كفيها وقدميها وزوقتها لعريسها فطلعت مثل أميرة.

انجذبت زانة لصفية ورأت فيها كثيرًا من خصال أمها، حدثتها صفية إنها خُطبت طفلة قبل أن يدركها الحيض، وأن مزيونة علمتها طبع الرجال، ودربتها على معاملتهم وأقنعت أمها التي أقنعت أباها أن تطول الخطبة حولاً، حتى تدورت الطفلة صفية امرأة عفية وأدركها الحيض. وفي فترة الخطبة دربتها على تجهيز الأكل وعلمتها التطريز، ووشوشتها بأمور تخفى حتى على النساء من حولها، ففارت وغرقت في دم الحيض مثل امرأة مشتهية، وغادرت بيت أهلها عروس تحدثت عنها بيوت الحارة طويلاً.

لكن ما حير زانة هو عمل صفية مع طه في التنجيد، وهي من تجيد أكثر من عمل تتكسب منه ولا يعرضها لكلام الناس.. هل هو الرزق، أم أنه العشق؟ ربما في طه شيء من فرحان الذي أخذه البحر غدرًا قبل أن تشبع منه؟!

وفي يوم خميس كالعادة رافقت جدتها إلى مقام الحسين،وقرأت الفاتحة على روح أبيها وروح جدها، ووزعت التمر والقطين على

الأطفال والمحتاجين، ولدى مغادرتهما المقام سد عليهما الطريق الشيخ أبو صبحة، غرس عصاه في الأرض، وهدر صوته يتردد في المكان:

- مدد يا ولي الله مدد.

جفلت واختبأت وراء جدتها التي ارتبكت هي الأخرى، وبصقت في عبها وتعوذت من الشيطان الرجيم.

- خير يا شيخ اللهم اجعله خير.

- الخير ماشي معكِ.. احفظيه.

- الله يحفظنا برحمته يا شيخ.

- بنت مطلق؟

- أيوه يا سيدي بنت مطلق.

- ومزيونة رجعت؟

- مستورة مع جوزها الراعي.

- الشرع شرع، والعرف عرف، البنت تلبس ثوبنا.. ماله ثوبنا يا ناس؟..

وتنبهت الجدة أن زانة منذ عادت تلبس ثياب الجبل، فاستدركت ممتثلة:

- حاضر يا سيدنا زانة تلبس الثوب وتغطي رأسها بالمنديل.

أفسح الشيخ الطريق، وبقي واقفًا مثل رمح، مرت العجوز فرفع عصاه يمنع زانة من المرور وصارت العصا فاصلاً بين البنت والجدة، تسمرت زانة ملخومة مذعورة، دق الشيخ العصا بمحاذاتها وعاين المسافة بين رأس والعصا ورأسها، تمايل.. قال:

- مقطع ١٤ ذراع.. مدد يا ولّي الله مدد.

قالت العجوز:

- المقطع ١٢ ذراع يا شيخ.

- أنا قلت ثوب بنت مزيونة ١٤ ذراع.

وقبل أن تصل الدار، عرجت على إبراهيم في القاعة وقالت:

- حل عن المطواة مقطع جنة ونار ١٤ ذراع لزانة.



(٢)

فشل حسن في إقناع جدته وعمه بالعمل راعيًا وتاجر أغنام، كما كان في الجبل، واعتبرا أن الرعي مهنة لا تليق بعائلة نساجين، فالراعي في المجدل يسرح بطرش أغنام الناس وينتظر أجرته في نهاية الموسم، ولا يلحق رغيف خبزه وكسوته السنوية، وبعد أخذ ورد؛ جذبه عمه إلى النول، وترك له الخيار في اقتناء ما شاء من الغنم.

ركب حسن النول، وفاجأ الجميع بسرعة تمكنه من الصنعة، وبعد شهرين قرر أن لا يكون أجيرًا.. فركب نول جده في الدار، وبعد شهرين آخرين جهز قاعة لثلاثة أنوال وشغل معه أجيرين، وتخصص في نسج المقاطع، واشتهر في المجدل بإتقانه صباغة حواشي الحرير وتركيب نيلة الأرضية، وقيل إنه يخلط مع الصبغة أعشابًا برية يجمعها من الأرض البعلية شرق البلد، وأنه تعلم الصباغ من سليمان، الذي كان يغزل ويصبغ الصوف ويبيعه على نساجي البسط وبيوت الشعر من بدو الهيب في أطراف المرج.

وعندما أصبح لحسن قاعة، لحقت حسنة بدولابها تلف المواسير لنوله، فيما تقوم الجدة وزانة على لف المواسير للأجيرين، تبقى حسنة وراء الدولاب حتى آذان الظهر موعد حلة العمال للغداء،

وتتسلل لبيتها لمساعدة أمها في أعمال البيت.. ثم تعود بعد العصر لقضاء بقية النهار مع زانة.

وتقول الحكاية:

إن حسن كان يفضل الجلوس في المقاعد والمضافات عن ارتياد المقاهي، ينصت باهتمام لأحاديث الكبار وخاصة عند فض المنازعات وحل المشاكل، وأن صحبته خارج الأسرة اقتصرت على أجيريه والراعي عمران، الذي وجد فيه الكثير من صفات سليمان، فانجذب إليه وتبادل معه الخبرات في الرعي والصيد وأمور أخرى لا تقال.. وفي محيط الأسرة ارتاح لرفقة طه، يقضي معه ليالي الخميس في الكرم يستمتع بحكاياته ومواويله، وينصبان الفخاخ عند السياج وتحت التوتة والجميزة، ويغطسان في البحر عند الفجر، الأمر الذي حير إبراهيم وزهديه في سر العلاقة بين حسن الجاد الدوغري وطه الذي تلاحقه الحكايات.. تطفئ الجدة وسواسهما:

-حسن وطه تغربا وشافا ناس غير ناس البلد، والدنيا توسعت قدامهم، الله يهدي سرهم ولا تطلبهم الغربة، وهذه شطارة النسوان، وأنت يا زهدية دردحي حسنة وخليها تشوف خطيبها بلاش ينط عنها لبعيد، المرأة الشاطرة مثل وتد الفرس تربط خيالها قدام المذود.



(٣)

مرّ حولان على عودة أولاد مطلق، وعُرف عن حسن صدق المعاملة في التجارة، وذاع صيت بضاعته في السوق، وفي يوم فوجئت به حسنة يغادر النول قبل الآذان، فنطت عن دولابها يسربلها الارتباك والخجل، أمسك معصمها فتبخر عرقها في كفه، حدق في عينيها وقال:

- من اليوم الغداء معنا.

صعد الدم إلى وجنتيها ردت على خفر راغبة:

-حاضر يا ابن عمي.

وانفلتت نحو زانة لتحضير الغداء وتجهيز الطبلية، وعلى الغداء جلست بين زانة والجدة، نطت زانة ودفستها فالتصق كتفها بكتف حسن وقالت:

- أقعد بينكم عزول.

ضحكت الجدة ووقفت اللقمة في زورها، وأدركها حسن بشربة الماء. قالت الجدة:

- الله يجازيك يا زانة تعملي الأصول في مطرحه ووقته.

قال حسن:

- العرس بعد الحصيدة يا جدتي.

- بعد الحصيدة تحصد الخير بجاه النبي الحبيب.. زمان ما فرحنا يا أولاد.

وزغدت حسنة مداعبة:

- تخلصي من بوز زهدية وتشوفي حالك ومالك.

ردت حسنة تداري فرحتها:

- حرام يا جدتي، والله زهدية بركة.

- بركة الماء في السل.. قومي اعملي شاي.

أشاعت زهدية الخبر، وأعدت العدة لتجهيز ابنتها، مرت على طه تؤكد الخبر وتستطلع أخبار حسن:

- اسمع يا طه جهاز ابنتي من أحسن قطن، ومن أغلى قماش، فاهم يا ابن العم.

علقت صفية المنكبة على تنجيد لحاف طفل:

- لا توصي حبيب على حبيبه.. ولحاف البكرعليَّ يا زهدية.

راوغ طه وتخابث وتشاغل باللحاف المفرود قدامه، فواصلت زهدية:

- أطلس اللحافات من يافا، عايزة جهاز ما دخل دار عروس في البلد.

- طلبكِ مش عندي، شوفي منجد غيري.

أدركت زهدية ملاوعته، فدخلت عليه من نقطة ضعفه:

- هذا فراش حسن يا مايص.

- طيب قولي لعمي إبراهيم: طه لا يغرز إبرة في الجهاز، إلا إذا أخذ حمام العريس، والزفة تطلع من داره.

دقته في صدره:

- ومن يطلع له يتعدى عليك يا ابن العم.



(٤)

مزيونة تعود..

على غير توقع حتى من زانة التي شيعت لها؛ عادت مزيونة، وعادت الحكايات الأولى، كانت برفقة سليمان هذه المرة، وعلى صدرها طفل رضيع مثل القمر، إذا شبع ضحك، وإذا جاع ضحك، وإذا بال ضحك، مزيونة من يعرف سر ضحكته في كل مرة، ما أخذ الناس العجب من طفل لا يعرف البكاء. قالت صفية وقد غمزت مزيونة:

- أولاد العاشقات دومًا يضحكون.

أخذته الجدة إلى حضنها فبال في حجرها وضحك، قذفته إلى أمه فضحك، وقالت:

- اللهم اجعله خير.

وحدثت صفية طه عن الطفل عابد فأخذته الرجفة، وشكت الإبرة إصبعه ونفر دمه غزيرًا، غمست قطنة بالزيت ولفت الإصبع المشقوحة وقالت:

- اللهم اجعله خير.

وأكملت عنه الشغل، فهي تعرف أنه دخل حالة أخرى لطالما حيرتها.. وتساءلت في سرها.. لو أعرف ما الذي يشغلكَ؟.

رجعت مزيونة برفقة رجل جبلي يتمنطق بحزام جلدي عريض، تسكن فوق سرته شبرية يمانية، يمم صوب دار إبراهيم، فيما واصلت هي إلى دار ابنها وقد شطح العرق على وجهها فأضاء شوقًا.

وقبل الفرح بيومين، سأل سليمان عن الراعي عمران، ورجع بخروف قاطعًا كل جدل:

- غداء العريس.. حسن ولدي مثل ما هو ولدكم.

طيرت مزيونة الزغرودة، وحضن سليمان العريس فدق القلب على القلب:

- مبروك، وإن شاء الله نرى ولدك في الحول القادم.

وسقطت بينهما الدموع ساخنة..

في صباح يوم الفرح وشوشت مزيونة زوجها، فاحتار في أمر النساء، وتساءل:

- ومالها ثيابنا؟.. البسي ثوب عُرسك.

- ألبسه يوم الأسبوع، أنت ناسي إحنا في الجدل.

فاجأت مزيونة الجميع بزينتها وكحل عينيها وضفائرها المحلولة، وقد شكت فيها نوار الفل والياسمين.. تثير عبقًا حول حورية تحزمت بزنار من خرز شد وسطها على ثوب الجنة والنار، الذي لم تلبسه

منذ رحيل مطلق، حتى سليمان فوجئ بامرأة كانت هنا يومًا، وتخيلها قبل أن تأتي الجبل مستجيرة، وعادت له ذات الرجفة التي اجتاحته يوم وقعت عينه عليها لأول مرة عند عين الماء، يوم تبدت له جنية هبطت من غيمة بعيدة، يومها جفلت عندما وجدته أمامها، قال بنصف لسان:

- أنا سليمان الراعي عليك الأمان يا أخت الرجال.

- وأنا ضيفة المختار، مزيونة أم حسن.

ووقف الكلام في حلقها، وخيل إليه أنه سمع نشيج صدرها يصب في مكان ما عند حبة قلبه.



(٥)

خرجت الزفة من دار طه،وتوجهت على دار العروس يتقدمها طه، الرجال تهندموا بالقنابيز الألاجة والروزا البيضاء أو السكرية، وشدوا الحطات البيضاء تحت العقال، والشباب هدلوا حطاتهم على أكتافهم، تقلدوا بالعقال و نفلوا غرة الشليش عن تحت الطواقي، أما طه فد تميز عن الجميع بسروال يافاوي أسود وقميص روزا أبيض، وتزنر بغبانية شامية غرس فيها فوق سرته شبرية صغيرة للغندرة، وهدل شليشه من تحت طاقية مطرزة، يرقص أمام العريس على إيقاعات خايلته وحركت فيه صبابته الأولى، فحركت في أحباب العريس جنون الرقص والغناء.. وصارت الزفة حديث البلد لعدة أيام، وتناثر ما أطلقه طه من مواويل ومراسيل غرام وشجن سكنت صدور الشباب والصبايا.

وصلت الزفة دار العروس، وكان رجال العائلة والحارة في استقبالها، وداروا على الناس بالشراب والماء المثلج.. تقدم إبراهيم من شيخ الشباب طه:

- والله ما بتطلع العروس على يد غيرك.

نزلت العروس بين زهدية ومزيونة ، ومن خلفها زانة تحمل أخاها

العابد، وعند باب الدار أخذ طه يد حسنة وخرج بها إلى حسن، ورقصت زهدية ومزيونة متقابلتين، ونثرت الجدة الملح والأرز، ونثرت زانة القرنفل والفل وزغاريد موصولة لا تنقطع، ولم يتوقف العابد عن الضحك والكغكغة، ولم يرطب حفاظته.

وفي الحكاية تقول صفية:

إن زانة لبست ثوبًا جبليًا، وتزينت مثل أميرة، وتوشحت بشال زهري مطرزة حوافه بالأزهار والعصافير، وتحزمت بزنار مطعم بالخرز والبرق، رقصت مع أمها حتى شطح عرقها، ورقصت مع جدتها فدبت في العجوز رياح صبية عفية، وغنت أغانٍ جبلية لم تعرفها أفراح المجدل من قبل، وأن الطبالة عجزت عن مواكبة أغانيها فدارت عجزها بدقات محايدة، وتمتمت معجبة مخذولة: "أميرة، أم جنية هبطت علينا من الغيم"..

وقيل إنها وقفت أمام طه مسمرة، فبلع ريقه وقذفه بجرأة:

- مبروك يا بنت العم، يا ست العرايس .

وأخذته جرأة مفاجئة، وتابع:

- مش كل عروس عروس.

لا تدري زانة ما الذي جرى لها، شيء زحف من دمها إلى لسانها قالت متمنية:

- العقبى عندك يا طه وتصير عريس العروس.
خيل لطه أن صوت المغربي يأتيه من بعيد "عروس عادت من الملافي".. رد همسًا:
- الله يسمع منكِ.
وقيل إن طه غادر البلد بعد أيام العرس والمباركة، وأن زانة أصابها القلق، لم تذق طعم النوم ثلاث ليال متواليات، ومع صياح الديك في الليلة الثالثة غادرت فراشها إلى فناء الدار، وحلت ضفائرها، وحملت ثدييها على كفيها، استجارت بفالق الإصباح، فسمعت هاتفًا في السماء، ورأت وجه طه على وجه القمر، فسجدت واستخارت ورجعت إلى الفراش وراحت في نوم عميق، وصحت في ضحى اليوم التالي على جوع وشهية للطعام، وسكنتها فرحة الواثق المنتظر.
ورجع طه، وتوجه على الفور إلى دار حسن وطلب يد زانة فوافق على أن يطلبها من عمه حفظًا للهيبة، ومراعاة الأصول، فتوجه للتو للعم إبراهيم الذي رحب وبارك، فأطلقت زهدية الزغرودة لفرحتها بالزواج ولخروج الناقة البيضاء من دار ابنتها.
وقيل إن طه لاذ بالحرم ثلاث ليالٍ وغادره صباح اليوم الرابع، إلى الحمام، ودعك جلده حتى صعد فيه الألم شفيف، فتفتحت نوارة قلبه، وفي الضحى اشترى كعكعتين ومضى إلى معلمه.

أخذه المغربي إلى صدره، وأرهف السمع لدقات قلبه، قال:

- جائع أنت يا طه؟

- على صوم ثلاث أيام، أطلب الاستخارة.

- وماذا رأيت؟

- أني نائم على بلاط أملس في صحراء بعيدة، وأن امرأة لها وجه ناقة، نقرت على البلاط من حولي وفردت لحمها علي وأخذتني إليها، وقبل أن أفيق أطلت علي امرأة أعرفها.

- وماذا بعد؟

تطهرتُ بماء بارد وأقمت الصلاة.

- وماذا بعد؟

- قصدتُ الحمام وأتيت إليك.

وقدم للعجوز كعكة.

- واحدة لك وواحدة لي يا أبي.

- بعد اليوم واحدة لك وواحدة لها.. عاهدني يا طه أن تبقى عليها.

- هل تعرفها؟

- أنتما غريبان عادا إلى الملافي، هي من يعرفك يا طه فلا تغترب.

وأخذه إلى صائغ واشترى خاتمًا من ذهب عثملي، ومرّا على سوق العطارين وتسوق شيحًا ونعناع وبذور القرنفل وحناء وبخور..

ودعه وسقطت دمعة العجوز:

- متى أرى ولدك السعيد يا طه؟

وفي الحكاية، أن السهوم والشرود أخذ طه بعد أن خطب زانـة، وأن الإبرة صارت تخطئ الكشتبان وتحفر في لحـم إصـبعه، وأنـه في مـرة صرخ من الألم، فسألته صفية:

- ماذا جرى لكَ؟

دلق هواجسه تخلص من حمل ناء به:

- ما رأيك في زانة يا أختي؟

- مثل أمها حرونة لا تفتح قلبها لرجل مشغول بغيرها.

بُهت، ولم يحر جوابًا، هل ضبطته صفية متلبسًا؟

- وكيف عرفتِ؟

- قلبي دليلي، لا تظلم بنت مزيونة يا طه.

وفي اليوم التالي سألها:

- هل تكتمين السر يا صفية؟

- في الخير يا أخي.

- احتفظي بهذا الخلخال.

ولم يسألها عن الخلخال إلا بعد الهجرة،ولم تخطئ الإبرة الكشتبان إلى لحمه بعد ذلك إلا مرة.



بين المخيم و سدرة الخروبي

.. ويتحدث الذين رُحلوا عن المجدل بعد عامين من النكبة عن "أحمد فليونة" الناشط العمالي والذي ما زال حيًا يرزق، أنه عمل على تنظيم ما بقي من العمال والشباب، وقام بتسجيلهم في الهستدروت، واستخرج لهم تصاريح شغل في المزارع والمستوطنات التي أُقيمت حول المجدل، وأنه كان ينحى باللائمة على الأعيان وكبار البلد الذين رحلوا، ويصب جام غضبه على رئيس البلدية الذي غادر في ذيول الجيوش المنسحبة، فلحق به معظم الناس.

وقيل إن متسللين جاءوا من غزة داهموه في بيته وكمموه أوثقوه ووضعوه في كيس وأخذوه على ظهر بغلة، تاركًا أمه العجوز وزوجته وطفله الرضيع، ومن غزة نقل إلى سجن أبو زعبل بتهمة الخيانة العظمى، وبقي رهين السجن حتى سقطت عنه التهمة في عهد الثورة، ورجع إلى غزة ولم يعد يتعرض لرئيس البلدية الذي أصبح قائمقام القطاع، وكان عندما يسأله المقربون عما جرى معه يكتفي بالقول:

– أنصفتني الثورة ولم يصفح عني رئيس البلدية.

ويرنو إلى الأفق ويغطس في الصمت.

(١)

يقول الدكتور عمران:

وعيت على الدنيا بين دارين، دارنا ودار جدي لأمي طه، وتدللت بين ثلاث جدات، جدتي لأمي زانة وجدتي لأبي حسنة والجدة صفية التي لطالما حيرني موقعها في الأسرة.

كنتُ أتشبث بذيل أمي، ونقطع المسافة بين المخيم والبلد مشيًا، نخب في الرمل حتى نعبر ضاحية الرمال فتبهرني البيوت الكبيرة العالية، وسكانها الذين يختلفون عنا في المخيم، فأولادهم بالملابس الغالية النظيفة لا يلعبون في الشوارع حفاة مثلنا.. نقطع السوافي والأحراش هبوطًا إلى حارة الفواخير، حتى إذا وصلنا سدرة الخروبي، تتوقف أمي في زاوية الطريق، تصلح هندامها وتلبس أساورها، وتشد المنديل على رأسها وتلم شعرها بالوربة المطرزة وتمسح عرق وجهها قبل أن نمر على المقهى المزروعة بالرجال، ونتجه صعدًا بين مقبرتين، إلى كتف السيد هاشم حيث دار جدي طه...

وهناك أعيش فرحة اللقاء مع فايزة، ألعب معها لعبة العروس والعريس، ونقيم بيتنا في زاوية الليوان بعيدًا عن العيون.

وعندما كبرت صرت أرافق فايز الذي يفرجني على شارع فهمي بك ويأخذني إلى سوق فراس حيث دكان جدي وخالي، نلعب بين بالات القطن ونختلس شلل خيوط المستت التي تصلح لتطيير الأطباق، فهي أقوى من خيوط جدتي حسنة التي تطير القبوع الورقية فقط وتتقطع بسهولة.

وفي دار جدي تصبح أمي غزالة، تحدث وتضحك وتشاكس وكأنها خارجة من صيام طويل، وتقضي معظم الوقت مع الجدة صفية، وتنام معها في المطبخ شتاءً، وفي فناء الدار صيفًا، فيما أنام أنا وفايز في حضن جدنا طه، واعتقدتُ؛ ولا أدري كيف سكنني الاعتقاد؛ بأن صفية زوجة ثانية لجدي، وأنه غضب عليها وحرمها من النوم في حجرته والاستحمام معه مثل جدتي زانة التي تدعك جلده بالليفة والصابون، ولا تبربح جسده بالماء الدافئ مثلما تفعل جدتي زانة.

وفي مرة تلصصتُ عليهما من شرخ الباب وهما يستحمان، وأرهفت السمع لدندنة تشبه الغناء، كانا عاريين يضحكان.. لكن الجدة صفية سحبتني بعيدًا:

- عيب يا حبيبي!

- ليش بيضحكوا؟ هي الصابونة ما بتحرق عينيهم؟!

حبستْ ضحكتها وتمتمتْ "جيل بصق إبليس.. اللهم ارحمنا"

- سيبهم يضحكوا.. أقل من الضحك..

وعندما تهيأتُ لدخول المدرسة؛ دس جدي طه في جيبي القطين والملبس وتأمل وجهي طويلاً، وهتف:

- هذا الولد مطلق الأصلي الخالق الناطق.

- أنا عمران يا جدي!

- أنت عمران بن راضي بن حسن بن مطلق العسقلاني.

وأخذ يحفظني اسمي حتى حفظته ورددته دون لعثمة، فنلت قرشًا كاملاً وقبلة على الخد..

وشغلني مطلق الأصلي الذي لا أعرفه، ولم أره، وأخبروني أنه جد أبي، ورحت أتخيله حتى زارني في النوم رجل طويل بلحية بيضاء مثل الثلج، قبلني وبكى فصحوت، وسألت أمي فأخبرتني أنه مات منذ زمن بعيد، وأنه يعيش الآن مع الملائكة في السماء.

انشغلتُ بقصص الأحياء والأموات، وكنت أتخيل جدي "مطلق" يتنقل بحرية بين السماء الأولى والسماء السابعة، وأن له في كل سماء قصرًا وحديقة تعطي ثمارًا من ذهب وفضة وجواهر، وأن جدي من الطول بحيث يقطع المسافة بين سماء وسماء بقفزة واحدة، وأن زوجته مزيونة تتعلق برقبته لأنها لا تستطيع القفز، وأن جدي حسن وجدتي زانة كانا معهما لكنهما هبطا إلى الأرض على حبل من ماء المطر أو على خيط من خيوط الفجر، وعلى الأرض كان طه أول من رأى زانة فتزوجها وأنجبا السعيد وحليمة، وكانت

حسنة في انتظار حسن، فتزوجها وأنجبا راضي وسارة.. ثم حدثتني الجدة صفية أن الأولاد كبروا في الهجرة فتزوج راضي من حليمة وأنجباني وأختي حبيبة، وتزوج السعيد من سارة وأنجبا فايز وفايزة.

وفي المدرسة تعلمت أن ابن آدم خُلق من تراب وإلى التراب يعود، وأن الناس بعد آدم لم يهبطوا من السماء، فانجلت أمامي حقيقة أن جدي مطلق عاش على الأرض ومات ودفن في بطن الأرض، واستوعبت فيما بعد حكايات الجدة صفية عن مطلق العسقلاني وزوجته مزيونة.

قالت صفية:

- أحب الناس لجدك طه أنت وفايز.

- وأنتِ يا جدتي؟

- أنا أخته في عهد الله، كيف لا يحبني!

وتساءلت، كيف تكون أخته في حب الله، واعتقدت أن ذلك يحدث بين الملائكة في السماء، لكن معلم التربية الدينية قال أن الملائكة لا يشبهون البشر لأنهم خلقوا من نور، وأنهم لا يتزوجون فسألته أن يصف الملائكة، وتوقعت أن يأتي على بعض صفات جدتي صفية، لكنه استغفر الله وتعوذ من الشيطان الرجيم، وعاقبني بقراءة الفاتحة عشر مرات ونسخها عشر مرات أيضًا. وعرفت فيما بعد أن الجدة صفية لا تنتمي لعائلة العسقلاني، وأنها ترملت في

عز شبابها بعد أن أخذ البحر زوجها وبقيت على ولدها عطا الله، وعملت مع جدي طه في التنجيد بعد أن عاهدها أن تكون أخته في عهد الله، وأنها انتقلت إلى داره بعد استشهاد عطا الله في حادث اللغم المعروف، وهاجرت معه وما زالت جدة الدار تستقبل الأحياء وتودع الأموات وتحفظ السير والحكايات.

وفيما بعد ترتبت لدي حكاية مطلق جد أبي الذي مات في الوباء عن زوجته مزيونة وولديه حسن وزانة، وعودتهما إلى البلد وبقاء مزيونة في الجبل مع زوجها سليمان الراعي، وأنها أنجت منه عابد الذي لا يتوقف عن الضحك، والذي أجمعت جدتي زانة والجدة صفية أنني شديد الشبه به، وأن أسفل كتفه الأيسر وحمة حبة توت حمراء تشبه التوتة الموجودة أسفل خاصرتي، والتي كلما حممتني أمي تلهج "سبحان الله كل ما تدعكها بالليفة تفز وتلمع مثل الزجاج" وتؤكد أمي أن حملها بي كان يسرًا خفيفًا، ولم يطرحها الوحام كما النساء، ولكنها اشتاقت للبطيخ في عز الشتاء، فأحضر جدي حسن بطيخة من بائع خضار في سوق فراس يشوّن البطيخ للعلاج أو الوحام، ويقدمه مجانًا لوجه الله.. وأن جدي ضحك منتصرًا:

- بطيخ في عز الشتاء يا بنت طه.

وتؤكد أنها لم تذق أحلى من تلك البطيخة، وأن ريقها يظل حلوا طيلة موسم البطيخ حتى الآن.

وتتوقف السيرة لدى الجدة صفية عند هجرة مزيونة وزوجها وابنها عابد إلى لبنان، لأن سليمان كان من الثوار ورأسه مطلوبًا من اليهود.

وذات ليلة ضبطتني الجدة صفية أهرش رأسي، فأخذتني إلى حضنها ودثرتني ببطانية وراحت تقص علي الحكايات فيما أصابعها تُفلّي شعري بحثًا عن القمل، وحتى لا أفلت من حضنها سألتني حزورة تشغلني بها "أخوك أمه هي أمك وأبوه مش أبوك من هو؟" وبعد أن انتهت من تفلية شعري حلت اللغز:

- جدك حسن من أمه؟

- مزيونة.

- ومن أبوه؟

- مطلق.

- وعابد من أمه؟

- مزيونة.

- ومن أبوه؟

- سليمان.

- وجدك حسن من أخوه؟

- عابد.

- شاطر يا حبيبي.

- وهل مات سليمان العابد مثل مطلق؟

- الله أعلم.

- تلاقيه شبع موت هو ومزيونة.

انتفضت الجدة ونترتني من حضنها..

- "فال الله ولا فالك" مزيونة تموت وأنا أشرب حسرتها، يا رب اجعل يومي قبل يومها.

وذات صباح وكان ذلك قبل حصار بيروت بشهر فوجئنا بالجدة صفية تشد رأسها بوربة سوداء، ودموعها تهطل مثل المطر، أخذت جدتي زانة رأسها وقرأت المعوذات.. وأخذتنا الحيرة.. ما الذي يُبكي الجدة؟ وفجأة أخذت تولول:

- يا ريتني كنت قبلك يا مزيونة.

وسقطتْ بين الغفوة والإغماء، همد كل شيء ما عدا صدرها الذي أخذ يعلو ويهبط، وعندما صحت تعوذت من الشيطان الرجيم واستغفرت وتوضأت وصلت.. وحدثت أن مزيونة زارتها في المنام، وكانت على محفة يرفعها أربعة عماليق عراة إلا من وزرات بيضاء، وأنها كانت تجلس على المحفة بثوب أبيض مثل ملاك، وأنها أشارت نحوها وقالت:

- سامحيني يا صفية أنا رايحة قبلك بخطوة.

قبلت جدتي رأسها:

- وحدي الله يا خالة.. مزيونة ماتت من زمان.. الله يرحمنا برحمته..

- مزيونة ماتت ليلة البارحة يا ناس.

وأرسلت من ينادي لشيخ مهدي لقراءة القرآن على روحها.



(٢)

كل حواسي تتعلق بأصابع جدي حسن وهو ينظف بارودته الألمانية.. يبهرني، ينزع الخزنة ويطرد منها الفشك، يضغط على نقطة معينة فتخرج المكمنزمة من جسد البندقية إلى راحته، يتحسس إبرة الضراب، ثم يشرع في تنظيف الأجزاء بعناية بخرقة بيضاء نظيفة مغمسة بالزيت، وينظف الماسورة بسيخ بولاد أسود ملفوف على رأسه قطنة مشبعة بالزيت.. جدي يتعامل مع البارودة بحنان.. يجمع الأجزاء ما عدا الخزنة، يصوب نحو السماء ويضغط على الزناد، تصدر البارودة تكة هامسة فيظهر الارتياح على وجهه، يمسحها بخرقة جافة ويضعها في كيس دامور يغلق بدكة، ويلف حولها بطانية سوداء من بطانيات الإعاشة، ويربطها بشريط عريض فتبدو مثل كافولة طفل، يعيدها إلى مكانها تحت دوشك الفراش.. يأخذني إلى حضنه:

- البارودة لكَ يا عمران، تعود بها إلى المجدل مع العائدين.

أنشد أمامه نشيد "عائدون.. عائدون"، تظهر الراحة على قسمات وجهه، أسأله:

- متى نعود يا جدي؟

- عندما يشاء الله.

وكانت جدتي حسنة تراقبنا، تقلّب شفتيها وتنفخ "المـوت، القاتـل مجبور والقتيل مغدور و..." يستشيط جدي غضبًا، يتدخل أبـي قبـل أن تسترسل، فتبلـع لسـانها وتـزوغ مـن أمامـه إلى أشـغال الـدار، يتدخل أبي مازحًا قبل أن يتطور الغضب إلى هياج لا تحمد عقباه:

- إيش تعمل بارودة من أيام حرب التنك مع الدبابات والطائرات والصواريخ؟.

- هذا اللي قدرنا عليه يا سبع، ويا ريتهم تركونا في حالنا، كان اللي صار ما صار.

جدي عاش على يقين أن تدخل الجيوش هو سبب الهزيمة، ولو ترك الأمر بين الثوار واليهود، لحقق الثوار نصرًا أكيدًا، ويؤكد اعتقاده بحقائق عايشها:

"كنا نتسلل إلى المستعمرة لا نرى أحدًا منهم، يختبئون في الملاجئ، وعندما ننسحب يفتحوا علينا النار، اليهودي جبان لا يواجه خصمه وجهًا لوجه، يعقرون من الخلف".

يدخل عليه أبي من باب آخر:

- الحرب خدعة مش لعبة تبان يا ختيار.

جدتي حسنة تحب جدي كثيرًا، لكنها تنسى نفسها وتأتي على ما يغضبه، وسرعان ما تمتص غضبه بالهروب من وجهه، فيهدأ وينادي عليها بصوت يحمل المصالحة والاعتذار مع المحافظة على ماء الوجه:

- الواحد رأسه سخن، اعملوا كباية شاي.

فترد جدتي بدلال مبطن بالعتاب:

- سلامة رأسك يا سبعي وتاج رأسي.

وفي يوم رقدتُ في حضنها وسألتها:

- لماذا تكرهي السلاح يا جدتي؟

- من يوم ما شفنا السلاح ما شفنا الخير، لا الثوار طلعوا ثوار، ولا الجيوش جيوش.. الحرب أخذت خلق كثير وضيعت البلاد.

- جدي يقول إن البلاد لا ترجع إلا بالبارود!

- صحيح إذا صارت قلوب النشاما على قلب رجل واحد، والكبير أخو الصغير والفقير مثل الأمير.

وسألت جدي كيف يكون الأمر كذلك، فقال أن ذلك لا يحدث إلا بين الثوار لأن الثائر هدفه الحق والعدل، ويفدي أخاه بدمه. وعندما سألت أمي عن الثوار أخذتني إلى صدرها وشهقت وقطعت عليَّ دهشتي:

- اسأل أبوك، هذا شغل الرجال.

وحدثني أبي أن جدي باع مصاغ جدتي واشتري البارودة والتحق بالثوار تحت قيادة عمران، وبعد عمران ظل على صلة بهم حتى الهجيج الكبير، وهاجر مع الناس، وسرت إشاعة أن اليهود يعلقون الثوار على الخوازيق وهم أحياء.

- يعني جدي لو رجع إلى البلد يعلقه اليهود على الخازوق؟.

- إشاعات، في الحرب تكثر الإشاعات وتضيع الحقيقة.

- ومتى نعود يا أبي؟

- عندما يتوحد العرب على الحقيقة بقيادة جمال عبد الناصر.

وحدثني عن حصار الفالوجا وفشل الثوار فك الحصار عن جمال ورفاقه، وأن عبد الناصر الذي أقسم أمام الناس بشرفه العسكري وشرف مصر أن يحاسب الخونة والمتخاذلين، لذلك قاد ثورة مصر وطرد الملك فاروق.

- يعني عبد الناصر يقدر على تحرير البلاد؟

- من يقدر يرد العدوان الثلاثي؛ يقدر يوحد العرب ويحرر البلاد.

- وبارودة جدي؟

ضحك، ووشوشني كمن يفشي سرًا:

- بارودته قديمة، لا تصلح في الحرب القادمة.



(٣)

ظل جدي حسن على نوله ينسج المقاطع، وظلت جدتي تجلس وراء الدولاب من الفجر حتى الضحى تلف من المواسير بما يكفي لتشغيل النول يومًا أو يزيد، وكنتُ أجلس إلى جانبها طمعًا في بعض الخيوط أطير بها القبوع الورقية، تدس الخيوط في جيبي وتتصنع الخوف من جدي، تهمس في أذني:

- لو شافنا يضربنا، أصل الخيوط يأكلها النول مش يلعب بها الأولاد.

- كيف يأكل النول الخيوط؟

- يأكل المواسير، وعافية الرجال، ولا يشبع؟

جدتي تبيع المقاطع للنساء، وتحدد مواعيد التسليم بناء على خطة جدي إذا ما كانت المسدية من الجنة والنار أو الجلجلي أو البلتاجي حسب ما يتوفر من حرير الحواشي والأصباغ الأصلية التي باتت شحيحة وحل محلها خيوط وأصباغ صناعية لا تتوفر فيها الشروط المرضية لجدي، ما يجعله يعلن عن غضبه وتمرده:

- الحرير الصناعي تحل عنه الصبغة،أما حرير الدودة يعشق الصبغة ومع الغسيل تزيد بهجته ودلاله.

تشاغبه جدتي بمراوغة التاجرة الشاطرة:
- اللي بيروح ما بيرجع، والجود من الموجود، والموجود في السوق نشتغله، ومصير النسوان يتعودن عليه.
يقف لها بحزم:
- إلا في المقاطع، يا ثوب على الأصول يا بلاش منه، نسوان هذه الأيام يفرحن بالفساتين المزوقة مثل هلاهيل النور.
تدقه جدتي على صدره بدلال:
- فشرن، الدهن في العتاقي، كل جيل وله وقته، وبعد جيلنا لا يظل ثوب ولا منديل ولا حتى وربة تشد الرأس.

جدي ينسج مقطعًا في اليوم، يحله عن المطواة ويطويه ويسلمه لجدتي، التي تسلمه بدورها للزبونة صاحبة الدور، وبعد عمل أبي في إسرائيل، صار يتعب من السداة ونصب العدة بمحاذاة سور المدرسة، ويتصبب عرقًا وهو يحمل الجاغ جيئة وذهابًا بين أعواد السداة ،وأكثر ما كان يجهده لف المسدية وتعليق الطبة في رقبته، كانت الطبة تأخذه إلى أسفل فينحني تحت ثقلها، وكانت جدتي تراقب بألم ممزوج بالشفقة تسرب عافيته وعناده الذي لا يعترف بتقدم العمر، تشكوه لأبي، الذي يدخل في الموضوع بحذر:
- يا ختيار، ارتاح وشوف حالك، العمر ينتهي والشغل ما ينتهي، انتبه لصلاتك وعبادتك، أنت ناقص عليك شيء؟

- اليد البطالة نجسة، والشغل أحسن من القعدة في عروق الحيطـان ولعب السيجة، الدنيا ضيقة يا ولدي، لا كرم تنام في ظل شجراته، ولا طرش تسرح به وتحلب غنماته.

عنيد جدي ومحاور يعجز أبي أمام منطقه، تنقذه جدتي بالتظاهر بالانتصار لجدي:

- النول سترنا وكسا عظمك لحم، وصرت رجل لك بيت وإبريق زيت.

يفهم أبي الإشارة فيصمت وتهمس في أذنه:

- إن ما اشتغل يطق ويموت.

لم يرقد جدي في عروق الحيطان مع الختيارية، ونادرًا ما شاركهم لعبة السيجة، كان بعد الغداء يغطس في نوم القيلولة، يصحو نشيطًا، يتهندم ويقصد مقعد المختار في طرف المخيم، ويعود بعد صلاة العشاء، حتى كان يوم وكان الوقت ضحى صرخ:

- الحقيني يا حسنة.

انكفأ على دف النول، طفحت الرغوة من فمه وانطبعت على رقعة القماش، وقع جدي بالفالج، ارتخى ذراعه الأيسر وأصاب الخدر الساق اليسرى أيضًا، مكث في المستشفى أسبوعين ولم يتحسن وضعه الصحي، فحمله أبي إلى أخصائي في تل أبيب، أخضعه لجلسات علاج طبيعي أدت إلى تنشيط طفيف للساق مكنته من

المشي بصعوبة بمساعدة عكازة من الألمنيوم بثلاثة أرجل، وصار يتمشى في فناء الدار ويتأرجح، فتتأرجح الدمعة على خد جدتي.. تخاف عليه من السقوط، وتتمتم بيأس "فالج لا تعالج..رحمتك يا رب" تنهرها الجدة صفية التي انتقلت إلى دارنا بعد مرضه لتقوم على خدمته مع جدتي وأمي، وتسامره بالقصص والحكايات، تقطع حديثها بين الحين والحين.. "سقى الله أيام زمان، كانت الدنيا دنيا والناس ناس"، وكان جدي ينظر إلى النول ويغرق في السهوم، وتتقصف شفتاه مثل طفل جائع، يبلع غصته ويواصل:

- وبعدين.. طالت الرقدة يا خالة.

وفي يوم تجرأت الجدة صفية، وصارحته:

- الغزل إن بقي على النول ينشف ويخرب يا ابن أختي.

صمت وتنقل بعينيه بين جدتي والنول وقال:

- بكرة بتروحي مع حسنة لجباليا وبتقولي لأبو العبد مليحة، أخوك حسن مشتاق لك.

وجاء أبو العبد وزوجته عصر الجمعة لعيادة جدي، قال جدي.

- النول عايز نويّل يركبه ويعرف قيمته.

تلجلج الرجل.. فهو يدرك عجز صاحبه عن ركوب النول:

- سلامة صاحبه بكرة تفز وترجع له.

- يا أبو العبد أنتَ عارف الصحيح، فك النول وخذه، النـول عـايز نويّل يركبه.

وركب أبو العبد النول لعدة أيام ونسج ما تبقى عليه من غزل، ثم فكه وأخذه.

ويوم باعت جدتي آخر مقطع؛ ودع جدي الدنيا بصمت.



(٤)

يوم أربعين جدي ذبحنا خروفًا سمينًا، ووزعت جدتي الجريشة على الجيران، وحملت وفايز اللحم والجريشة لأصحاب النصيب في الجامع، وظل الشيخ مهدي يتلو القرآن حتى صلاة العصر، وقبل الغروب تهيأ خالي السعيد وعائلته للعودة إلى دارهم في البلد، وطلب من الجدة صفية العودة معهم، لكنها تقاعست وتشاغلت عن جمع حوائجها، ثم أعلنت عن رغبتها البقاء معنا.. لعب الوسواس في صدر خالي ورمى زوجته بنظرة زاجرة، ما دفعها تسأل مذعورة:

- خير يا أبو فايز.. في شيء؟!

لم يرد وتوجه للجدة:

- أنتِ زعلانة من أحد؟

- لا يا حبيبي، أقعد مع حليمة وحسنة أونسهم، ابن أختك صغير وراضي يغيب عن الدار لاحق رزقه في إسرائيل، والدار اللي ما فيها نفس رجل مطموع فيها.

انفرجت أساريره وبانت علامات الرضا على وجهه، وتشجعت أمي معاتبة: ظلمتني الله يسامحك.

وفي اليوم التالي تأخر أبي كالعادة، ونامت جدتي، وسهرت الجدة صفية تحدث أمي وتحثني على أكمال واجباتي المدرسية والنوم مبكرًا حتى أصحو مبكرًا وأهرول إلى المدرسة مثل الرهوان.

ضحكت أمي:

- مثل الرهوان! قولي مثل الغزال.

- البنت مثل الغزال، والولد مثل الحصان أو الرهوان.

وقرصتها من خدها:

- الولد لا يتدلع، بكرة يكبر ويخشن ويتدلع في حضن زوجته، وأنتِ فكي الحداد والبسي ذهبك وتعطري واستعدي لزوجك.. بنت زانة لازم تبقى عروس.

الجدة صفية تحب أمي كثيرًا، تأخذها إلى حضنها مثل طفلة، تتأمل وجهها، تضحك أمي حتى ترقص غمازة ذقنها، فتهتف الجدة:

- سبحان الله كل ما ضحكت حليمة أشوف مزيونة.

أسألها عن مزيونة، تغمض عينيها وتفتح كفيها وتقرأ الفاتحة، وتقول بوجد:

- روحها طلبت الرحمة، مزيونة مثل أمك وأحلى شوية.. ما في أحلى من مزيونة.

وأتخيل من هي أجمل من أمي، فلا أستطيع، وأنحاز لرأي جدتي حليمة، التي تصطحبني وأمي إلى الأعراس، وفي كل مرة تقول:

- نفسي أشوف بين العرايس عروسة أحلى من كنتي.

أمي بيضاء طويلة عفية، إذا ضحكت يصبح وجهها ورديًا، وترقص غمازة ذقنها، تنشغل بزينتها وتضفير شعرها الطويل الأسود، ترسم الكحل حول عينيها وتتباهى بذهبها الذي يكسو معصميها، تتدلل على أبي فيأخذها إلى إسرائيل يفرجها على الدنيا كما تقول، ويصطحبها أيام السبت لزيارة الأهل والأصدقاء، أو يطوف معها على المحلات في سوق المدينة، ويعودان بالفواكه والحلوى والملابس، وغالبًا ما ترجع من السوق بقطعة مصاغ جديدة، تبارك لها جدتي محذرة:

- لا تلبسي ذهبك كله، يحلى في عين أولاد الحرام.

ترد متنمرة:

- اللي يقرب مني أكسر رقبته.

ورحتُ أتساءل، كيف تكسر أمي رقاب الرجال وهي ترتجف وتغرق بدموعها أمام غضب أبي، فسألت جدتي:

- صحيح أمي تكسر رقاب الرجال؟

- أمك شاطرة، الله يرزقك بواحدة تحبك مثل ما بتحب أبوك.

وبقيت أتساءل عن الحب الذي بين أمي وأبي،حتى كبرتُ ورجفتُ وعرفتُ رجفة القلب كلما انفردتُ بفايزة، وانشغلت بالسر الذي ورثناه عن مزيونة كما تقول الجدة صفية.

وتقول الحكاية :

إنه عُرف عن حليمة تعلقها بزوجها، ومباهاتها بمصاغها الكثير وخواتمها الجميلة المتميزة، وتفننها في زينتها بحيث تبدو الأجمل بين النساء وخاصة في الأعراس، وعُرف عنها إذا رقصت في عرس تخطف البهجة من العروس، كما عرف عنها عنايتها بتربية أولادها ومتابعة دراستهم في البيت والمدرسة، خاصة ابنها عمران الذي أظهر نبوغًا لافتًا بين أقرانه، تأخذه إلى حضنها وتخرخش بأساورها:

- هذا كله لك، تكبر وتتعلم وتصير دكتور قد الدنيا.

تتطير حماتها:

- سلامة خير أبوه، اللي كساكِ بالذهب؛ يعمله من عرق جبينه بالحلال، ويزوجه ويفتح له عيادة.

وكبر عمران، وحصل على معدل مكنه من دخول كلية الطب في القاهرة، والحصول على منحة تفوق من وكالة الغوث.



ما بعد الهجيج الكبير

.. وعندما سألت صفية الشيخ أبو صبحة في ما رأت، بكى وناح وهدأ واستغفر ربه، قال:

- قدر الله وما شاء فعل، استعجلت مزيونة.. لو انتظرت نصف خطوة لذهبت معها.

وتطلع إلى السماء ورفع عصاه وأخذ يحركها نحو مواقع لا يعرفها سواه، وكأنه يرى ما لا يُرى.. يتوقف عند اتجاه معين ويدمدم، فيما صفية مأخوذة مذعورة، نطق الشيخ:

- مزيونة تقول الصدق يا صفية ما زال لكِ على ظهر الدنيا خطوة وبعض الخطوة.. انتظري حتى تشوفيه.

- أشوف من يا شيخ؟!

مدد يا ولي الله مدد.. عندما يطل خذيه إلى صدركِ احضنيه تعرفيه.

ومات المبروك بعد خمس سنين كاملات، وأدركت صفية أن الخطوة في الرؤيا عشر سنين وانتظرت، وكانت كلما أضناها الانتظار تعاتب مزيونة التي سبقتها إلى الموت.

وتقول فايزة إنها سمعتها أكثر من مرة تحدث نفسها وتقول:

- ليش تأخر؟.

(١)

نزح الناس عن المجدل في ذيول الجيش المصري إلى غزة؛ فيما عُرف بخطة التقدم إلى الخلف؛ وباءت بالفشل محاولات سليم القاسم وأحمد فليونة ورفاقهم على ثنى الناس عن النزوح بعد خروج رئيس البلدية وعائلته مع الجيش.. وبقي طه وعائلته مع بعض الأهالي في البلدة، وكان ممن يعتقدون أن النزوح خطأ كبير لاسيما وأن المجدل تقع في حصة العرب حسب قرار التقسيم.

حلت النكبة وأُعلنت المجدل مدينة مفتوحة لمن يريد العودة ملتزمًا بقوانين وأمن إسرائيل، بعض الناس عادوا متسللين حملوا بعض المتاع أو بعض الزاد وعادوا إلى غزة ، ومنهم من نفذ عمليات عسكرية ضد اليهود، فأُعلنت المدينة منطقة عسكرية بحجة إيواء المتسللين المهاجمين، وتم تجميع الناس في حارات معينة وفُرض حولها نطاق يحدد الدخول والخروج، وبعد عامين خيّر من تبقى في المدينة بين الانتقال إلى اللد والرملة ومناطق الشمال وبين النزوح إلى غزة، فاختارت الأغلبية اللحاق بذويهم في غزة. ومنهم طه الذي لم يستجب لرغبة صديقه سليم القاسم؛ الذي أصبح عضوًا بارزًا في الحزب الشيوعي؛ بالانتقال إلى حيفا. أما صفية فقد رفضت الخروج من البلد إلى أي جهة ووقفت لطه:

- يا طه من يخرج من داره يقل مقداره.

- يا أختي من لا يخرج اليوم؛ يطردوه غدًا.

- أنا عند تربة عطا الله.. أدفنوني حية عند ابني.

وأخذت تلطم على خديها وتنوح:

- عطا الله عاش يتيم ووحداني، أبقى عنده اونسه.

ولاذت بدارها وأغلقت عليها بابها، فلاذ طه بالشيخ البردويل.. وضع الشيخ كفه على رأسها وقرأ ما تيسر من القرآن، فهدأت واستكانت وأصابتها الرجفة مثل قطة بللها المطر، قال الشيخ:

- كلنا خارجون وكلنا راجعون، والميت في أيام الكرب عند الله محفوظ ومحظوظ.

وقيل إن الشيخ شهق ومات بمجرد أن لامست قدمه صاجة باب حافلة الصليب الأحمر المتجهة إلى غزة، وأن أولاده دفنوه على عجل عند مقام سيدنا الحسين، وأن صفية لازمتها اللوثة طول الطريق وأخذت تردد: "الميت محفوظ ومحظوظ".

وصامت عن الكلام، وشردت مع غائب بعيد، وطال صمتها، حتى كان موسم المنطار ووقفت مع زانة وحليمة مع نساء الحارة للفرجة على خروج عدة دراويش سيدي أبو الكأس من جامع السيد هاشم متوجهة شرقًا إلى المنطار، فإذا بالشيخ أبو صبحة يسير مع الموكب وقد تقلد مسابحه ووضع شاراته وعندما حاذاهم انفصل عن الموكب ونادى على زانة:

- من معكِ يا بنت مطلق؟

- هذه أم عطا الله صفية، وهذه ابنتي حليمة.

غز عصاه في صدر حليمة، وقال غاضبًا:

- البنت استوت.. حرام عليكم، تروح لبيتها، قولي لطه المشمش في أوانه حلو مثل السكر، وإن مرّ عليه الوقت يذبل يا ناس.

ثم أشار لصفية وأخذ يضرب الهواء كمن يضرب ولدًا مشاغبًا حتى نال منه التعب وسال الزبد من فمه، ثم قال بين الرجاء والبكاء:

- أنتِ مش صفية.. لا أنتِ مش صفية.

وقبض على معصمها حتى آلمها فصرخت وصرخ:

- ارجعي لصفية يا صفية.. أنا مش ناقص همكِ.

وهرول يلحق الدراويش.

وحدثت زانة أن صفية رجعت إلى الدار واستحمت بماء ساخن وجردت جسدها بليفة خشنة وتطييت وتكحلت فعادت صفية الأولى.

وقيل إن حسن خطب حليمة لابنه راضي، وأن طه وقف لخطاب طلبوا سارة، وقال غاضبًا:

- ابن العم ينزل العروس عن الفرس، سارة للسعيد.

وأمهرها بشهود الخاطبين ومباركتهم.



(٢)

ظل طه في مسكنه عند كتف السيد هاشم، واستأجر دكانًا في سوق فراس خلف سوق القماشين، ولم يمر عليه وقت طويل حتى أصبح له زبائنه من أهالي المجدل وغيرهم، وترك السعيد عمله حارسًا في مركز التموين التابع لوكالة الغوث، مؤمنا بحكمة أبيه "في الصنعة قرارك من رأسك، والقرش حلال، والأجر على قدر التعب".

ورافقت صفية طه التنجيد في البيوت، أما السعيد فلم يتعود ذلك وبقي في الدكان يمارس المهنة ويعرض منتوجاته، بالإضافة لبيع لوازم التنجيد من أقمشة وخيوط وأقطان، وبعد زواجه انفتح له السوق وعرف طريق مصر واستورد الأقطان، وتميز بين التجار بصدق المعاملة، واللين مع المنجدين وتجار التجزئة في الضواحي والمخيمات، ولازم طه يقين أن الرزق جاء مع كنته سارة وزاد بعد ميلاد فايز، فصار يناديها "يا وجه الخير".. تضحك زانة بلؤم:

- يعني قبل سارة ما كان خير؟!

تتدخل صفية تشعل الغيرة:

- خير عن خير يفرق، من حارس هنجر لتاجر مستورد.

وتفرك أذن زانة وتوشوشها:

- فرحان بكنته اتركيه يدلعها، وبلاش غيرة نسوان في آخر العمر.

وهي مالها سارة معدولة ومزيونة.

تمصص زانة شفتيها، وتجر صفية لوفاء قديم:

- مش كل المزيونات مزيونة.

تشكمها صفية:

- ولا كل النسوان مكيودات مثل بنت مزيونة.

وزانة حاضرة نضرة، يسكن طه عند حبة قلبها وتنام قريرة العين.. صارت جدة وظلت عروس، تغار على زوجها، ولا تغفو إلا بعد أن يأخذه النوم إلى الحلم، تعشقه مثل طفل لم يغادر صدرها، تمنحه الشبع ولا تشبع منه، تحفظ درس أمها، يوم صباحية عرسها:

- أنتِ الآن امرأة، راقبي لحمك ولا تؤجلي رغبة ولا تحرميه رغبة.

- والخجل؟!

- لا خجل في الحلال، الرغبة تقتل الخجل وتمنح الفيض، وتشعل الغيرة منه وعليه.

- كيف؟

- من تتقوت على الحب، يأخذها الشبع إلى جوع جديد، وتعرف الانتظار على رجفة رغبة.

وبعد الزواج بعدة أشهر، اختبرتها صفية:

- لا تغارين على زوجكِ وكل يومه بين النساء؟.

ردت بثقة الواثق:

- رفة قلبه على صدري لم تتغير.. زوجي لي.

(٣)

ومرت الأيام ولم تتغير زانة، لم تضربها الغيرة ولم يأخذها الوسواس إلا مرة واحدة وكانت على حق، يومها لاذت بصفية:

- طه تقلب في النوم ولم يغفو إلا بعد الفجر، واغتسل بالعرق مثل المطرود!

- يا ابنتي زوجكِ يتعب في الشغل والعمر يزيد والعافية تقل.

- يا خاله عرق زوجي عرق قلق.

- وكيف عرفتِ؟

- غبرني باردًا بقلب غير قلب طه.

- تعوذي من الشيطان هذه أحوال الرجال.

وتعجبت صفية من قدرة العاشقات على سبر أغوار الوليف، حدث ذلك بعد أن جاءت إلى الدكان نورية ممن طفشوا من ساحة سوق الجمعة في الشجاعية ونصبوا خيامهم وقشعهم عند أطراف خان الخضار في سوق فراس، وقفت عند رأس طه المستغرق في الشغل.. قالت بما يشبه الأمر وبصوت صبية مغناج:

- هل ينجد المنجد فرشة ولحاف لنورية بردانة؟

بُهت طه، لم يبش لها كما يفعل مع الزبونات، وراح يتنقل ببصرة بين النورية وصفية، التي فوجئت بجرأة الزبونة، وحال طه الذي صار بين الرغبة والذعر، أخذت النورية وجهه بين كفيها وصلبت عينيه أمام عينيها وقالت:

- ماذا تقول يا منجد؟

رد بريق جاف:

- ولِمَ لا.. الرزق من عند الله.

هبطت النورية على الحصيرة إلى جانبه، كتفها يلامس كتفه ومدت قدمها ورفعت الرداء عن ساقها فانكشف لحم أبيض نابض رغم تقدم السن، وأيقنت صفية أن النور لا يشيخون لأن حرفتهم الفرح، يعيشون الفرح ويشعلون الفرح، لا تضبطهم نواميس، لهم نواميسهم وللناس نواميس. وتساءلت أي النواميس أغرق طه في البلبة والارتباك.. ظهر الارتياح على المرأة فمدت قدمها الأخرى وكانت مسورة بخلخال، فسقطت صفية في البلبة.

ذات الخلخال الذي أودعه طه عندها قبل أن يتزوج، ولم يسألها عنه بعد ذلكَ.. نهضت النورية ورمت ورقة من فئة الخمس جنيهات في حضن طه:

- حضّر القطن والقماش، وأعود بعد يومين.

- هذا كثير!

- هذا نقوط الفراش يا منجد، والأجر بعد الشغل.

تدخلت صفية يدفعها الفضول وأشارت إلى أرفف الأقمشة:

- اختاري ما تريدين.

- هو يعرف ما أريد.. أنتِ زوجته؟

ورمقتها بنظرة تحمل من الهزئ قدر ما تحمل من التحـدي، ومضـت في زحام السوق تتبعها رنة الخلخال، تاركة طه في الوجـوم، وصـفية في الحيرة.. قالت صفية رافضة محتدة:

- ناقص علينا التنجيد للنور.

رد طه كالمنوم:

- الزبون صاحب حاجة والعامل صاحب أجر، والرزق لا يفرق بين غني وفقير، ولا بين نوري وأمير.

وانكب على العمل، لكن الإبرة أخطأت الكشتبان عدة مرات وشكت لحمه ونفر دمه غزيرًا في كل مرة.. صرخت صفية:

- انقلب حالك بعد النورية أترك اللحاف واسترح.

تمدد على الحصير فغفى، وما بين الغفوة والصحو جاءه صوت المغربي يركب الريح:

- لا تدخل الاختبار يا طه.. الذي مضى لا يعود.

- لكن نرجس عادت يا معلمي؟

- بعد فوات الوقت والأوان.. أنتَ في حلٍّ منها.

- كيف؟!

- رد إليها وديعتها، ولا تغرز إبرة في فراشها، لا تترك عرقكَ لديها.

صحا من الغفوة وسأل صفية:

- هل ما زلتِ تحتفظين بالخلخال؟

- لم يخرج من صندوقي.

تعلل بالإجهاد والتعب، ولم يسرح للعمل لعدة أيام، وبعد يومين رجعت النورية ولم تجده سألت مخذولة:

- أين طه؟

ردت عليها صفية طاردة:

- المنجد لن ينجد.

وردت لها النقود وفردة الخلخال.. وضعت النورية الخلخال في قدمها اليمنى وانصرفت، ولم تسمع صفية له رنة فتمتمت مبهوتة "سبحان الله".

وقيل إن النورية رحلت عن الخان يرافقها طبال هرم، وأن طه قد اصطحب في ذلك العام زانة وصفية لزيارة الرسول، وبعد الحج اعتزل التنجيد تاركًا الدكان للسعيد، واقتصرت خطواته بين الدار والجامع حتى وافته المنية، وكان ذلك قبل النكسة بعامين. أما زانة فقد أصابها الذبول بعد طه ولم تنقطع خميسًا عن زيارته، توزع عن

روحه التمر والقطين وتحمل للشيخ أبي صبحه المقيم في المقبرة ما تيسر من طعام.. وذات خميس لم يمد أبو صبحه يده للطعام وبكى..

- ارجعي به يا زانة.
- ليش يا سيدنا؟
- هل زارك طه الليلة الفائتة؟
- زارني وكان عريسًا فرحًا ومشتاقًا.
- عودي بالطعام يا مسكينة.

وودعت زانة الدنيا قبل أن يأتي الخميس التالي، نامت بعد صلاة العشاء ولم تقم.. انسل سرها عن جسدها دون أن يشعر بها أحد.



(٤)

وبعد النكسة تعرف السعيد على أسواق إسرائيل بحثًا عن الأقطان والخيوط في المحالج ومصانع الغزل والنسيج، وعاد إلى تجارته، وتوسع رزقه، ولم يعد يجد وقتًا للتنجيد، فوجه زبائنه إلى منجدين ثقة كانوا صبيانًا عند طه وشربوا الصنعة عنه.. وفي أوقات راحته كان ينصت للحاجة صفية، يتنسم منها رائحة أمه وأبيه ويأخذ عنها المشورة عندما يلتبس عليه أمر ما.

وفي يوم نظرت صفية إلى قوس طه والمدقة الذي ظلت تحتفظ به بعد العودة من الحج، يومها قال طه: "خذي القوس يا صفية، القوس زهق مني، يمكن يحن وتره في يد فايز".. تنهدت صفية:

- لو تأخذ فايز تعلمه الشغل، يسند ظهرك، أنت تتعب كثير.

- الولد صغير أخاف يلحق البيع والشراء وتضيع منه المدرسة.

- الولد عفي وشقي، وكل يوم بيرجع من الحارة يا ضارب يا مضروب.

تدخلت سارة قبل أن يشتعل صدر زوجها على ابنه:

- الأولاد مثل مصارين البطن يتقاتلوا ويتصالحوا.

صمتت صفية فهي بقدر ما تتمنى أن ترى قوس طه في يد فايز، بقدر ما تتمنى أن يتفوق في الدراسة مثل ابن عمته عمران.



(٥)

عُرف عن فايز تحصيله المتوسط في الدراسة وميله للسرحان الطويل وشغفه بحكايات الكبار وخاصة أحاديث جده طه عن القدس ويافا وحيفا وعكا والناصرة، تبهره جدته زانة بما ترويه عن الحياة في الجبل، أما الجدة صفية فكانت بحر المعرفة في حياة الناس في المجدل قبل الهجرة، يتوسد فخذها وتظل تحدثه حتى يغطس في النوم.

وفي الحارة والمدرسة يكون فايز آخر، شديد الاعتداد بالنفس، يرافق من هم أكبر منه سنًا، ويقود أولاد الحارة في التصدي للحارات المجاورة، ويبادر إلى الانخراط في المظاهرات ورشق الجنود بالحجارة والتخفي في خضم الناس. وعندما وصل المرحلة الثانوية تعلق بابنة عمته حبيبة التي اندفعت نحوه، كما تعلق بمدرس الفيزياء "هشام زينة" وطور علاقته به خارج المدرسة، وتعلم على يديه دروسًا غير التي في الكتب، تعلم كيف يجيب على أسئلة الاحتلال والثورة والمقاومة والنضال السري والتنظيم الطلابي وتوزيع المنشورات، ما جعله يعيد النظر في ما سمع من حكايات وما تربى عليه من عادات وعلاقات.. يعود إلى الجدة صفية حتى يصل إلى فصل المقال، فتقف في أغلب الحالات حائرة:

- يا ولدي هذه أمور يعرف فيها الرجال، لو ظل عطا الله عايش كان عرفك، أصله كان مع الثوار.

ولاحظت صفية كثرة تردد فايز على بيت خاله راضي حيث تقيم، وقلت أسئلته لها وتوسع حديثه مع حبيبة ما أثلج صدرها، لكن ما أقلق صفية هو انشعال حبيبة بذات الأسئلة التي تؤرق فايز، ولكنها كانت تقتل توجسها بأن للعشاق في كل زمن وسائلهم.. ولم يطل الوقت حتى حدثت المفاجأة التي هزت بيت العسقلاني.. فقد صحا السعيد على طرقات عنيفة على باب الدر وصوت لاسلكي أعرج، خرج إلى الحوش يستطلع الأمر فطرحوه أرضًا وصوبوا البنادق إلى صدره، سأله أحدهم:

- هذا بيت فايز العسقلاني؟

- أنا أبوه يا خواجة.

وفي الصباح تهامست الحارة عن اعتقال فايز العسقلاني، وتحدثت غزة عن ضربة كبيرة طالت تنظيم الجبهة الشعبية.. وبعد ثلاثة أشهر حكم بدأت جلسات المحاكمة، فيما كان زملاؤه يجلسون على مقاعد امتحان الثانوية العامة، وفيما كانت سارة في حضن صفية تبق دمعها دمًا.. أما فايزة فقد وقعت بين الحنق والحزن لا تزوغ عينها عن حبيبة المأخوذة إلى حافة الجنون ولكنها متماسكة.



(٦)

ومرّ عام على اعتقال فايز، أخذ عائلة العسقلاني إلى هموم لم تكن في الحسبان، جرجرت السعيد بين المعتقل والمحامي لمتابعة قضية ابنه وموقعه من المجموعة التي تعرضت للضربة، والتهم الموجهة له، واعترافات أفراد المجموعة التي تصب ضده أو لصالحه، وقراءة التوقعات على ضوء الحالات المماثلة، ما حدا به إلى التعرف على ذوي معتقلين سابقين.

وقضى السعيد أيامًا بين التفاؤل والوجوم الذي ينذر بالتشاؤم، فلا قاعدة ولا يقين في المحاكمات العسكرية، موقف القاضي الشخصي هو سيد الموقف، الأمر الذي شكك السعيد في تطمينات المحامي، والوقوع فريسة للأسى، فأهمل عمله وتجارته، وفي الدار يصعد على همومه ويتصنع التماسك وعدم الاكتراث، ويتحاشى خوض الحديث مع سارة التي لا تكف عن البكاء وكأنها دخلت الحداد الأزلي، تبرد نارها عندما تكون بين أهالي المعتقلين، وتشتعل نارها وتتحول إلى كتلة من صمت عندما تفرغ عليها الدار. تهاجس نفسها "إيش كان ناقص عليك يا فايز.. أين راح عقلك؟". أما فايزة فقد امتصت الصدمة؛ ربما لأنها كانت تتوقع حدوثها، فقد لاحظت

على فايز قلقًا غير عادي في الأيام الأخيرة بعد اعتقال الأستاذ هشام وعدد من طلابه، ونقل بعض حاجياته عند حبيبة، وزيادة نشاط حبيبة في تحريض البنات للخروج في المظاهرات، وقبل الاعتقال بأسبوع دست في جيبها منشورًا وقرصتها من أذنها:

- أعطيه لفايز.

وعندما أعطته المنشور ابتسم منتصرًا:

- هذه البنت مجنونة.

- يا فايز السنة قدامك توجيهي انتبه لحالك!

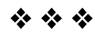
- الدراسة لا تتعارض مع مقاومة الاحتلال.

أما حبيبة فقد بدت الأكثر تماسكا في غياب فايز، وسكن عينيها حزنًا متحديًا، فوجئت بالضربة ولكنها لم تعتبرها نهاية المطاف، وأصبحت أكثر حيطة وحذرًا، ما أثار دهشة الحاجة صفية، وراحت تحدث نفسها "بنات العسقلاني عاشقات كاملات، إلا حبيبة الشعنونة" كما كان يحلو لها وصفها، فقد كانت تنصت لحديثها مع فايز فيختلط عليها الأمر إذا ما كان بينهما مناجاة عشاق أم خصام يصل إلى حد العراك.. "شعنونة، الله يساعدك عليها يا فايز".

وذات زيارة رافقت فايزة الجدة صفية إلى السجن، تسمرت أمام شبك طاقة الزيارة ولم تستطع السيطرة على دموعها، وفي نهاية

الزيارة افتعل أحد السجناء مشاحنة مع أحد الحراس ما أثـار بلبلـة استغلها السجناء في تهريب الرسائل والهدايا، فسرب فـايز منـديلاً في كف الحاجة صفية التي تعودت على ذلك في الزيارات:
- سلمي على حبيبة.

وفي ذلك العام اجتازت فايزة وحبيبة الثانوية العامة، وسافرت فـايزة إلى مصر لدراسة الآداب، والتحقت حبيبـة بجامعـة بـير زيـت بنـاءَ على رغبة فايز..
وأيقنت الجدة صفية أن الشعنونة عاشقة من نوع آخر.



من سيرة محمد العابد

.. وقطعت صفية على ظهر الدنيا تسع خطوات، ونامت نومتها الأخيرة على العتبة الثالثة من الخطوة العاشرة، ووقف محمد العابد ببزة التشريفات العسكرية يأخذ فيها العزاء.

وفي ا لسرادق تهامس المعزون من أهالي المجدل يسألون عن الضابط بهي الطلعة والذي يشبه فايز من يكون؟ وحدسوا أنه واحد من أولاد العسقلاني رجع مع العائدين..

وبقي السؤال معلقًا:

- ابن من يكون؟.

(١)

تتوه في المدينة، والمدينة خارجة من بطن الموت، تبحث عن بهاء، تتزين بفقرها، تستقبل العائدين بما تيسر من خير، وما سكن من شوق ولهفة تأخذ القسمات إلى الرجفة والرعشة، وها أنت تقطع الشوارع والأزقة ومسارب المخيمات، تحدق في الأشياء، تتسلل خلف الوجوم، تبحث في وجوهٍ لم تقابلها من قبل، لا وجه غريب عليكَ وكأن كل الناس هنا عائدون، أو كأن العائدين كانوا في غفوة وأفاقوا على فراش الحلم هنا.. وهنا تقذفكَ الدروب من التعب إلى البحر، أنتَ والماء وأمواج الذاكرة، والمرافئ والموانئ والشواطئ والمودعين الذين لم يأخذوا القطار إلى الوطن، لم يقطعوا صحراء التيه إلى معبر رفح.

لماذا عدتَ يا محمد العابد؟، ولمن تعود ورفات جدك ما زال في بطـن المغارة، والجبل لم تصل إليه الاتفاقية.. محظور عليك الوصول إليـه.. لا شـيء لـك غـير حقيبتـك وملابسـك القليلـة وبعـض الأوراق وبعض الصور، حتى النياشين تركتها خلفك.. هاتف أتـاك؛ صـوت أبيك: "ما قيمة النياشـين ولا انتصـار خـارج الـوطن" هـل تعتـذر للراحلين؟! وهل عرفـوا أن طريـق العـودة الـذي سـلكته غـير مـا اتفقوا عليه.

قالت جدتك مزيونة ذات صيفٍ، وكنتُ تقضي الإجازة الصيفية في مخيم الأشبال بعيدًا عن حضنها: "إذا عدتَ يا محمد لا ترضى بأقل من تراب جدك" صارت المغارة في صدرك ميعادًا مع الأزل، وذات شتاء قارص وحول كانون النار هاجت بها الذكرى قالت: "لا عودة أصدق من عودة سليمان" وطشت دمعتها على جمر الموقد، وعجبتَ لارتباط العودة بالدموع والنار، وعندما حفظتَ نشيد العودة سألتَ أباك:

- هل يوصلنا النشيد إلى الوطن يا أبي؟

- من يحفظ النشيد يعرف درب العودة يا محمد.

وكبرتَ، واختلطتَ عليك الحكايات والصور، جدك سليمان لم يطق الحياة في المخيم فمرض بالصمت، اختفى ولم يعد، حتى قطع بموته وقدم الإشارة، صديق عمره ورفيقه في معارك "شفاعمر" جدك خضر أبو العلا، ولم يُؤخذ فيه العزاء خوفًا على أبيكَ العابد من عيون رجال الدرك المنتشرين في المخيم.

وصحوت يوما على أبيك يوصي أمك:

- أمي ومحمد وزينة الصغيرة أمانة في رقبتكِ يا بنت الحلال.

وتعودت على سهوم جدتك وأمك كلما غاب أبوك، وفرحتهما ونضارتهما كلما عاد، وأدركت أن أباك يعمل ما لا يعمله الرجال في المخيم وتساءلت عن سر العمل الذي يقع بين الفرح والوجوم،

حتى كانت النكسة وخرج المخيم من الوجوم إلى الغضب، ووقف لرجال الدرك بعيون حمراء، فأخذك اليقين أن طريق العودة يبدأ من المخيم ولا ينتهي به.

وها أنت على مرمى حجر من مخيم الشاطئ، لك البحر والرقم الوطني الذي منحك إياه جندي من الطرف الآخر، دقق البيانات واستكملها على لوح الحاسوب، اختزلكَ الجندي إلى رقم ينام هادئًا في بطن الحاسوب، سأل ضاحكًا متشفيًا:

- "أخلاً وسخلاً، الاسم رباعيًا من فضلك"؟

- محمد العابد سليمان الصالح.

- مكان وتاريخ الميلاد؟

- مخيم عين الحلوة- صيدا- ١٩٥٨

- البلد القادم منه؟

- كل البلاد

- العمل السابق؟

ركبك الجنون..

- العمل السابق واللاحق فدائي

ابتسم جندي الطرف الآخر على خبث:

- أنت هنا شرطي لحماية السلام حسب الاتفاقية.. أخلاً وسخلاً.. تفضل اعبر.

وعبرتَ.. وما زال السؤال يطن في رأسك، من منا الذي عاد؟! محمد أخو زينة الفدائي، أم محمد الشرطي المشروط بالاتفاقية؟! شتان بين عودة الجد وعودة الحفيد.. شتان يا جدتي..

محمد العابد في الوطن ضابط في قوات حرس الرئاسة، بزته مكوية وذقنه حليقة والنجوم لامعة على كتفيه حسب ما يقتضيه البرتوكول حتى قائدك صديق أبيكّ تغير في الوطن، لم يعد فدائي القواعد في العرقوب،غيّرته البزة والنجوم والسيارات والمرافقون وهبات الرئيس، لا شيء فيه من "عين الحلوة"،حتى اسمه الحركي تغير وصار صاحب اسم أليف.. سكن الأبراج في الوطن، وصار من الرجال الأمراء، وأنت ما زلت تقيم في حجرة صغيرة ملحقة بمقر الرئاسة، كل متاعك سرير حديدي وخزانة قديمة، وما يسكن بطن الحقيبة.

البارحة مر عليك القائد، أخذك إلى صدره وتحرك فيه ولاء قديم:

- هل ينقصك شيء يا محمد؟

- شكرًا يا عمي.

احتضنك بعينيه، هل تذكر أباك؟

- ها قد عدنا إلى الوطن، أما آن الأوان أن يكون لك بيت وأهل، اعزم يا محمد وأنا في مقام أبيك.

- ..

وارتسم أمامك يوم عـودة جثمـان أبيـك مـن العرقـوب، وخـروج المخيم خلفه في الجنازة، ورفيقه الشهير بالضبع ألقى كلمة التـأبين، ووضح للناس كيف استشهد العابد الصالح وهو يغطـي انسـحاب أفراد مجموعته حتى آخر رصاصة في جعبته.. وانكفأتَ على الصور، تتقافز أمامك الحكايات فصولاً طازجة، هل يكفيك البكاء اعتـذارًا لأمك وأبيك وأختك وجذر الحكايات جدتك مزيونة الـتي رفضـت أن تؤخذ لها صورة بعد الهجرة:

- لماذا يا جدتي ترفضين الصور؟

أخذتك إلى حضنها وحدقتْ في عينيك تعلمك حكمة:

- حتى أظل صبية لا تشيخ، الذي يعرف الحياة يا ولدي لا يشيخ.

آخر صوره لها كانت مع جدي سليمان الصالح، في حضتها طفل ضاحك في الثالثة من العمر كان في ذلك الزمان أبي، وعندما سألت أبي عن مسقط رأس جدي سليمان حدثني عن جبل من جبال سبعة تحيط بشفا عمر، وعندما سألته عن مسقط رأس جدتي مزبونة، وقع في الالتباس فسألها:

- من أي البلاد أنتِ، ومن هم أخوالي؟

بهتت الجدة وزحف السواد على محياها قالت:

- من بلاد الله الواسعة، أما أخوالك فقد تبعثروا في دنيا الله الواسعة.

- كيف يا أمي؟

- ستعرف يومًا، وكل شيء بأوان.

واستشهد ولم يعرف، ومضت جدتي وكل ما عرفته منها أن لأبي عم اسمه حسن، وعمة اسمها زانه، وأن آخر عهدها بهما كان قبل الهجرة بعامين.

وهاهي في الصور مزيونه شابة عفية تلقي برأسها على صدر شاب مغندر اسمه مطلق.

أي فصول مرت قبل أن تبدأ فصولك وأختك يا محمد العابد. وزينة أختكَ طفلة مثل القمر؛ مثل ملاك، وصبية تخطف الشهقة من صدور شباب عين الحلوة، في أي بيت ستقيم يا محمد، وفي أي زوايا تسكن الصور، أم تراك سترقد على الصور مثل دجاجة ترقد على البيض، هل تفقس الصور عن أجنة حكايات في الوطن؟..

ماذا يقول وشيش البحر؟.. اُنفض غبار الموت عن سكان الصور تعود مع ألق الحياة.. علمني أيها البحر الذي يرصد الحياة والموت منذ الأزل، تركب الموجة ظهر الموجة تسبقها للموت في إسفنج رمال الشاطئ، هل تسكن الصور البراويز وتمتطي جدران البيوت في الوطن، وهل تغادري يا زينة الجدار إلى الشاطئ، تراقبين معي المدى، ترحلين مع الموج وتعودين طفلة فرحة بشبراتك، تكبرين على صهوة الماء صبية تزفين إليّ حصولك على شهادة التمريض،

هل تقفين عند هذا الفصل من الحكاية، وأنا يخذلني الوقت عن من سفحوكِ واستباحوكِ تناوبًا، هل استجرتِ بي، وهل ناديتِ عليَّ قبل أن يأخذك الغدر إلى الموت؟.. كيف تكون الدار بكِ وبدونك يا أخت محمد العابد الذي نسي اسمه بعد أن تكنى باسمك بعد أن صار "اخو زينة" وصرتِ له العنوان، من يسامرني في الصباح وفي المساء؟..

لا وليف غير وشيش البحر.



(٢)

مثل برقٍ خطف روحك، رجفة أخذت كل شيء فيكَ، مادت الأرض بكَ، لم يمر بكَ مثل هذا وأنت َمن عبر دروب الموت، لم يخطفك الموت، هل تكون النهاية رجفة أمام ابتسامة روح غابت لتعود في هذه المدينة من الوطن، أي أقدار تتربص بك، وقد اكتفيت بمسامرة البحر.. تتوه في الطرقات، تقذفك الدروب إلى الموج، لا تمل من مراقبة لعبة الحياة والموت بين ظهر الماء ورمل الشاطئ، لا عرق هنا ولا خوف ولا دوريات عبور من الوطن الكبير إلى الوطن، جاءوا بك بالاتفاقية من أطراف الدنيا إلى هذا الطرف القصي من الوطن، وها هو قائدك الذي حمل يومًا رفات أبيك من العرقوب إلى عين الحلوة، يحمل إليكَ تكليفًا؛ أو خبرًا:

- رشحتك لمهمة مسلية يا محمد.

أي تسلية غير البحر؟...

تابع القائد:

- الإشراف على سير أول امتحانات للثانوية العامة، وضبط التسيب الذي اعتاد عليه الطلاب إبان الانتفاضة.

وأخذك إلى صدره، وجاست أصابعه في شعرك الذي تساوى فيه السواد مع البياض.

- تشرف على لجان الطالبات لعلك تجد العروس.

هل رشحتني لضبط اللجنة أم لخطف برق.. قبل أن توزع أوراق الأسئلة، تأخذني الأسئلة إلى أرضٍ مادت بي، وتقفز هي أمامي بشحمها ولحمها وغمازة ذقنها، هل نسيت يا سيدي؟ لم يكن يحلو لك تقبيلها إلا من غمازتها وتهتف:

- تسلم لي هالعصفورة اللي ترفرف في ذقنك.

هي "زينة" التي لوحت لنا في المرفأ يوم الرحيل عن بيروت؛ تخرج عليك في غزة، كبرت؛ امتلأتْ قليلا، عيناها العسليتان وشعرها الخيلي ورجفة الشفة العليا، تمد يدها ضاحكة واثقة تضربك بالرجفة والصمت، تموت يدك في كفها، تصحو من الموت على صوت مرافقتك رئيسة اللجنة:

- المعلمة فايزة المشرفة على المراقبين في هذا الجناح

صوت المعلمة العروس:

-أهلاً وسهلاً يا أخي، والحمد لله، أن جيشنا يقوم على حمايتنا.

نصل شق صدرك، حبس الكلام في حلقومك، غادرت القاعة ينز العرق من كل لحمك، يبلل بزتك العسكرية، عرق ما تفصد منك أم دموع! من يصدق أني عثرت على زينة الصالح في الوطن! وزينة

تلاشت كما قالت أم الفضل بعد أن أقسمت بدم أولادها الخمسة الذين ذبحوا في حجرها:

"وقفت رويدة بينهم وبين زينة فخردقوها بالرصاص وتكومت على عتبة الدار، لم تنزف قطرة دم فأصابهم الهلع.. خلعوا الشراويل ورقصوا عراة ثم تناوبوا على الصبية، وكلما نهض واحد منهم من فوقها تلاشى شيء منها، وأن عيني الصبية ظلتا مفتوحتين على اتساعهما مثل سمكة البحر، تحدق في من تناوبوا عليها، حتى إذا قام عنها آخرهم شهقت شهقة مروعة وتفجرت عيناها في المكان نارًا بلون الشفق، فاختلط ضحكها مع صراخ الرجل الذي أكلته النار وصار إلى كتلة من فحم".

قالوا إن أم الفضل أصابتها اللوثة مما رأت، ولكنك الوحيد الذي صدق روايتها، خاصة أن أحدًا لم يشهد بدفن زينة مع ضحايا المجزرة.

قال وليد العوض الذي دفن كل أهله وكل الضحايا وسجلهم:

- لم تسجل الممرضة زينة الصالح مع من دفنوا.

وأكدت رحاب كنعان الوحيدة الباقية من أهلها البالغ عددهم خمسين نفسًا:

- لم تُقتل زينة، ولم تعد إلى المخيم بعد المذبحة.

وعندما سُئلت في رواية أم الفضل قالت:

- أم الفضل لم تفقد عقلها، وأم الفضل لا تكذب.

وأكد شهود عيان ممن تحدثوا مع أم الفضل بعد المجزرة أنها كانت في كامل وعيها وأعادت عليهم الرواية عدة مرات ولأكثر من سائل، لم يلتبس عليها وصف ولا أخطأت في ترتيب، وأكد كل من نجا من المذبحة أن رجلاً من المهاجمين شبت فيه النار وتحول إلى فحم لزج التصق بعتبة دار زينة الصالح.

وعندما افترض أحد الناجين أن كتلة الفحم ربما كانت بقايا زينة، هاجت أم الفضل وصرخت في وجهه :

- أنت لست من سكان المخيم، وإلا لتعرفت على رائحة زينة الصالح!!... وتبين فعلاً أن الرجل من سكان الضواحي لاذ بالمخيم ليلة الحصار.

هل تركب الموج وتصرخ بأعلى صوتك، ترسل إشارتك وبشارتك إلى كل المرافئ والموانئ والشواطئ، أن زينة ركبت الموج وعادت إلى غزة وتخفت باسم فايزة.. لكنه الموج يركب الموج وينطفئ زبدًا في إسفنج رمل الشاطئ، يغوص ليعود إلى البحر ماء يركب الماء موج منذ الأزل.. فهل تعود يا ابن العابد إلى قاعة الامتحانات، وهل تعثر على فصولك في وطن ليس لك فيه غير البحر وحقيبة صغيرة وبقايا أوراق وبقايا صور وخاتم ورثته عن جدتك مزيونة قبل الاجتياح بقليل؟.

وجدتك عمّرت طويلاً، واختارت موعد الفراق، لم تعاني من مرض ولا أخذها الهزال، وعندما نمتَ في حضنها آخر مرة قالت:

- لا تتأخر يا محمد، أنا أشم رائحة غريبة.

- بعد أسبوع يا جدتي.

كانت تنتظرك على بوابة الزقاق، توكأت على كتفك وعادت بك إلى البيت، فأخذتك في حضنها، تلك الليلة رجعتَ طفلاً تنصت للحكايات، حدثتك عن سليمان الصالح، وعن صديقتها صفية الوحيدة التي تعرف سرها... وقبل أن تغفو وضعت الخاتم في إصبعك:

- احتفظ به يا محمد يدلك.

وغطستْ في النوم، ولم تنهض مع الآذان كعادتها، ولم تصلِ الفجر حاضرًا، لم تشعل الموقد ولم تحضر شاي الصباح، ماتت على بهاء لم تره على وجه إنسي..

وخرجت عين الحلوة تودعها إلى مثواها الأخير.



(٣)

في اليوم الأول حدثتْ المعلمة فايزة زوجها الدكتور عمران عن الضابط المكلف بضبط النظام، والذي حدق فيها وتسمّر مبهوتًا، وغادر اللجنة مرتبكًا..

داعب عمران زوجته يناوش غرور المرأة فيها:

- شاف عروسة مثل القمر تضحك له، ضربت معه لخمة..

دفنت فايزة رأس عمران في صدرها وتدللت:

- هي العروسة حلوة، لكن الضابط مش أحلى من العريس.

وفايزة الجميلة تعشق عمران، وتطبق مقولة الحاجة صفية "بنات العسقلاني كاملات وعاشقات".

وفي اليوم الثاني فوجئت فايزة بالضابط يمر عليها في اللجنة، وتبادل معها أطراف الحديث، كان هادئًا واثقًا ومعتدًا بنفسه على غير تكلف، وعندما ودعها ضحك ورقصت غمازة ذقنه، فتسرب إليها إحساس بأنها تعرفه، أو أنها قابلته يومًا ما في مكانٍ ما، ولكنها لم تصل إلى يقين، فسقطت في الحيرة، ولم تخرج منها إلا على صوت صديقتها وزميلتها في المراقبة:

- الضابط يشبه أخاكِ فايز كثيرا؟!

وفي المساء حدثتْ زوجها عن الضابط الـذي يشـبه فـايز وكأنهمـا توأمان.. وأرهفت الحاجة السمع على غير عادتها، وحدثت نفسها:

- معقول؟!

ولم تخادع إحساس بأنها تشم رائحة ريح بعيدة منذ عدة أشهر.

وفي اليوم الثالث رجعتْ من العمـل، وأخـذت يـد الحاجـة صـفية تتأمـل خاتمًـا سـحبته مـن إصـبعها بصـعوبة وقلبتـه، رأت نقشًـا لعصفورة على سطحه الداخلي، سألت:

- على أيامكم يا جدة كنتم تنقشون عصافير على الخواتم؟

- ما رأيت نقش العصفورة إلا على خواتم مزيونة، كان عندها طقم خواتم كلها منقوش عليها العصفورة.

أعادت الحاجة الخاتم إلى إصبعها، وتابعتْ:

- كل ما خلعت الخاتم من إصبعي أبرد وأحس بالقشـعريرة تسـري في بدني.. سبحان الله كأن الخاتم يدفئني.

- اليوم رأيت خاتمًا مثله في يد الضابط!

هتفت صفية كمن عثر على كنز:

- هذا ابن الغرة.

بهتت فايزة فهي لم تسمع بالغرة من قبل، من تكون هذه الغرة، وما شأن الضابط بها؟!

- من تكون الغرة يا جدة؟

- ياه كيف نسيت.. مرت الخطوة قبل صيف.

انكمشت العجوز على بقايا امرأة حفر فيها العمر أخاديده/ وأخذت تنتفض وتنز ماءً ساخنًا.. خيل لفايزة أن الجدة تتبخر، حملتها إلى فراشها فراحت في سبات عميق، تسكن وجهها ابتسامة طفل.. وعندما أفاقت صارت امرأةً أخرى، بهية عفية متحفزة، ما أن دخل عمران الدار حتى تعلقت برقبته وأمطرته قبلاً:

-خذني إليه يا عمران.

- من هو يا جدة؟!

ردت فايزة مبهوتة:

- ضابط اللجنة.

نفخ عمران في وجه زوجته، وهمس معاتبًا غاضبًا:

-إنهبلتِ بالضابط، وهبلتي الحاجة معكِ.

ردت فايزة كمن يردد لغزًا لم تجد له حلاً:

- طلع الضابط ابن الغرة!.

وقفت صفية بينهما:

- خذوني أشوفه، ما بقي لي وقت على الدنيا يا أولاد.

ووقعتْ مغشيًا عليها، تسكن وجهها ابتسامة طفل.



(٤)

آخر ليلة في حضن مزيونة، هل كانت تحتفي بك، أم تتهيأ للذهاب؟ البخور يعبق في الحجرة، ورائحة العطر تنبعث من الفراش، وضوء قنديل الزيت يقتل ما أمكنه من العتمة.. قرأتْ الدهشة على وجهكَ فاجأتكَ مثل عاشقة:

- الليلة أنت لي يا محمد.

ما الذي جرى لها، هل هي الوحدة بعد أن غادرت أمي وزينة إلى مخيم صبرا، وأخذتني منها القواعد، هل خافت من تغير الأمكنة فاعتصمتِ بعين الحلوة؟.

تلك الليلة تزينتْ مثل عروس تأخر زفافها عمرًا، الكحل يبرق حول العينين، والضفائر محناة مثل شعلة ضاحكة.. أي سحر ما زال ينبض فيكِ يا جدتي، وأي سرٍّ تحملين؟.

أخرجتْ من صندوقها ثوب نوم حريري.. زهري يتموج على ضوء الفتيل:

- نقوطي لعروستك، لم ألبسه منذ غادرنا الجبل.

- لا عرس لي إلا بعد عرس زينة يا جدتي.

- خذه يا محمد، عندما ترقد العروس في حضنك لن أكون.

أخذتها إلى حضنك، وبكيت:

- لكِ طول العمر يا جدتي.

وارتسمت أمامكَ قبل خمسين سنة امرأة نابضة ترقد في حضن سليمان الصالح وتتدلل، ضحكتُ أُداري خوفي عليها:

- يا لحظ جدي معكِ.. هل كان يحبك؟

- عشت معه عروس وعاشرني رجل عاشق.

وروت أنه باع قطيع الأغنام، لم يبق له غير بندقيته وفرسه وكلبه الأمين، والتحق بالثوار في معية خضر أبو العلا، حتى معركة الجامع في شفاعمر قبل سقوط البلدة والرحيل عبر وادي سلامة.. قالت:

" أردفني خلفه على الفرس، وركب أبوك البغلة، وعندما شارف الركب نهاية الوادي، حرن الفرس ودق قائميه الخلفيتين بالأرض، ولم يتقدم خطوة، هبط جدكَ وقبّل غرة الفرس وبكى، فبكى الفرس، نادى عليَّ:

- اهبطي يا مزيونة عن ظهر الفرس.

شب الفرس في الهواء وانطلق باتجاه الجبل، وانطلق في إثره الكلب يطلق عواءً كالنواح.. قال جدك وقد أُسقط في يده:

- اختلفت الريح على الأصيل.

وعندما خرجنا من وادي سلامة تسمر الناس حائرون، أي الدروب يسلكون، وخاف الرجال على الصبايا والنساء، وهمس خضر أبو العلا لجدك:

- ضاعت الأرض يا سليمان، وما بقي لنا غير العرض نحميه حتى نعود.

كانت أمك على تباشير تفتح تتعلق بذيل أمها، وكان أبوك صبيًا على عتبات الرجولة، نادى عليه خضر:

- اردف رويدة خلفك يا عابد الصالح.

- وماذا عن أبي؟

- ومن يرد هدية لم يكن ينالها حتى في الأحلام؟.. هذه رويدة بنت "أبو العلا" على سن ورمح.

ارتمى جدكَ على صدر خضر وبكى مثل طفل، ونادى على رويدة بصوت مخنوق بين الفرحة والذهول:

- تشبثي بخاصرتيه ولا تخجلي يا عمي.

وشاع بين المهاجرين أن خضر أبو العلا وهب ابنته لابـن الراعـي سليمان الصالح، عند الحد الفاصل بين الوطن والمنفى، وأن النـاس حط عليهم الوجوم، وأن معظم الصبايا البالغـات خطـبن للفتيـان، وأن أحـدًا لم يتحـدث في مهـر أو جهـاز عـروس، أو يتوقـف عنـد حسب ونسب أو غني وفقير.

هل أدرك خضر ما ستحمله الأيام في المنافي، وكأن الخلق سيبدأ من جديد ويصبح جميع الناس لاجئين؟.. وهل ذلك ما جعل جدك يقع في صمت الذهول... قالت جدتك:

- تغيرت الأمكنة على جدك فمرض بالصمت.

وغاب سليمان الصالح عن المخيم ولم يعد، حتى قطع بموته خضر أبو العلا ورجع بالإشارة.

وقيل في الحكاية:

إن الناس في شفا عمر ما زالوا يتناقلون عن الكبار الذين عاصروا النكبة، حكاية فرس ذات غرة بيضاء قطعت وادي سلامة إلى شفا عمر، وأن كلبًا يتبعها مثل ظلها ويصدر نباحًا غاضبًا، وقيل إن الفرس كلما مرّ بشارع أو زقاق شب على قائمتيه الخلفيتين وواصل الركض، حتى إذا وصل الجامع توقف، وصهل صهيلاً طويلاً حزينًا، ثم دار حول الجامع سبع دورات كاملات وانطلق صعدًا باتجاه الجبل.

وقيل إن أحدًا لم يكن على ظهر الفرس، وقيل إن سليمان الصالح كان على ظهره، وقيل إن خضر أبو العلا كان خياله، وقيل عن شيخ اعتزل الخلق وأقام في عب تينة في سفح الجبل، أن الفرس مرّ به وعلى ظهره سيدنا الخضر.

لكن جميع الروايات أجمعت أن حراس المستوطنة التي أقيمت على رأس الجبل أطلقوا عليه وابلاً من الرصاص وأردوه قتيلاً عند باب المغارة، وأن الكلب بقي عند باب المغارة حتى شاخ وابيض شعره، ولم يؤكد أحدٌ من الناس موت الكلب.

وفي الحكاية قيل:

إن خضر أبو العلا تسلل إلى الوطن بعد عام من غياب سليمان الصالح، ووجد أن رأس الجبل أصبحت منطقة عسكرية ممنوع الاقتراب منها، وأنه تم ترحيل من تبقى من الناس إلى القرى والبلدات المجاورة، فسلك دروبًا يعرفها حتى وصل المغارة، وفوجئ بالكلب رابض عند بابها، وأن الكلب تمسح بقدمه وسار به إلى داخل المغارة وتوقف عند موضع معين ونبش التراب فانكشف له رفات سليمان الصالح، فخفر له خضر ودفنه وتيمم بالتراب وصلى عليه صلاة الميت، ورجع لمزيونة بالإشارة.

- هذا خاتمه الدعاء له بشفاعة الحبيب المصطفى.

وقيل إن الدمعة تحجرت في مآقيها ولم تسقط، وغاصت في صدرها غصة لم تغادره.

قالت في ليلتها الأخيرة:

- عاش جدك وحيدًا لم أعرف له أهلا، ومات لم يحضره سوى كلبه الأمين.

تلك الليلة نزعت الخاتم عن إصبعها، ووضعته في إصبعك وورثتك الحكاية..

فهل كانت وسليمان الصالح على ميعاد؟.



(٥)

وهذا أنتَ في حضرة الحاجة صفية تتأمل تجاعيد وجهها،وتتسلل إلى أزمان بعيدة، تبحث عن فصول لم تسمعها عن جدك، ولم يحدثك بها أبوك الذي راح قصفة عمر قبل أن يصل إلى رفات سليمان الصالح. وها أنتَ اليوم ليس لك من سيرتك الأولى غير خليلة مزيونة.. عجوز عتيقة تغمض عينيها فتدخل عتمة شفيفة تتوهج عن مواعيد أخذت العمر إلى محطات، تمسح وجهها بكفيها، تفيق عند محطة ما لتعبر عتبة ما.. تتثائب كمن أفاق من نوم بعيد.. تهامس أطيافًا بعيدة:

"الدنيا دوارة، سنين تجر سنين، والخرساء تطوي الناس.. والعمر يمضي في غمضة عين، وكأن ابن آدم في حلم يصحو يلاقي عمره خلفه.. كأنه البارحة. حضر السعيد وأطلق صرخته الأولى في حجري.. كبر السعيد وصار رجلاً وخلّف فايز وفايزة، ومات له ولدان في الحصبة، زمان كانت الناس جاهلة ولاحقة الشغل والشقاء، ومن يفلت من الحصبة يكتب له عمر جديد.. الأولاد كبروا، وفي غمضة عين أخذوا فايز للحبس.. وصدق من قال (من له عمر لا تهينه شدة، والسجن لا يبنى على الرجال)."

سبع سنين قضاها على جنبٍ واحد، دخل السجن صبي وطلـع منـه راجل يقف على شاربه الصقر، سبع سنين وما انقطعتُ عن زيارته إلا في أيام الإضرابات، يرافقني في كل مـرة أمـه سـارة وواحـد مـن العيلة، نروح ملهوفين ونرجع مهمومين، كل واحد منا يخبـئ وجعـه عن الآخر.. الزيارة عذاب.. تشوف السباع في القفص.. أكثر واحـد فينا كان يقطع فيه الزعل أبوه، كل مـرة يـزوره يرقـد في الفـراش.. حبسة ابنه هدت حيله وبطل يـذوق للـدنيا طعـم، دائمًـا سـرحان، السعيد قلبه رهيف، وأنا أُهوّن عليه:

- يا ولدي كل الناس أولادها في الحبس، ولو كل واحد يعمل في حاله مثلك كان أغلقت الناس أبوابها.. قوم شوف عيالك ورزقك وتوكل على الله.

تتقصف شفتاه مثل طفلٍ مضروبٍ ويقول:

- والله يا خالة كل ما أشوف يهودي تركبني العفاريت.

لذتَ بحضنها تطلب الدفء.." أي سرٍّ بقي فيـكِ مـن مزيونـة، وأي سحر ما زال يسكنكِ؟.." عجوز تزحف نحو المائة ومـا زالـت علـى وهج الصبا، رغم تسرب العافية لم تخذلها المواعيد، تقـرأ عـن لـوح محفوظ وتمارس الماضي حلمًا:

أولاد العسقلاني مثـل أولاد الحدوتـة، ربنـا أعطـاهم جمـال الخلقـة وهدوء الطبع "جمال وكمال"، رجع عمران من مصر دكتور ورجعت

فايزة بشهادتها وفرحنا بهم، وصار لهم بيت وإبريق زيت.. عشاق فرخوا أولاد مثل القمر ربيتهم في حضني، قال فايزة عايزة ترسلهم وهم في اللفة إلى الحضانة مثل أولاد المعلمات، رحت قعدت معهم وأخذت الأولاد في حضني، ربيتهم مثل ما ربيت أهلهم..

تضحك صفية حتى تشرق:

- اللي ما قدرت عليها حبيبة، كانت عاملة مع جماعتها حضانة، قلت لها هاتي أولادك عندي مع أولاد عمران، قامت تجعصت عليّ وقالت:

- ولمن فتحنا حضانتنا، أكون صاحبة حضانة وأولادي بره، هاتي أولاد عمران إلى روضتنا.

قامت فايزة رقدت في حضني وردت عليها:

- حضانة الجدة أم العطا هي الأصل، اسألي مجرب ولا تسألي طبيب.

فايزة طول عمرها هادئة ومرضية من الكل، وحبيبة من يومها مشاغبة وغير شكل عن بنات العسقلاني مثل زوجها وكأنهم مخلوقين لبعض.. سبحان الله.

تضحك الحاجة بوله وتتابع:

حبيبة فاعت بعد حبسة فايز، وفي بير زيت تقول إنهبلت وركبها جن، لا أنت عارفها ولد ولا أنت عارفها بنت، السياسة لحست

عقلها، تقول في الجامعة يأكلوا ويشربوا سياسة ومظاهرات وعرب ويهود ومساجين، ما في على لسانها غير اليهود وسيرة فايز، تقول عايش معها في الجامعة أو هي عايشه معه في السجن، وما صدقنا ترجع بشهادتها وتقعد بيننا وتبرد نار أبيها الذي كان ينام ويصحو على مصيبة تحل بالعائلة من تحت رأسها، دائمًا يكلم نفسه "يا خوفي يحبسوها ونقعد مضغة في ألسنة الناس". والمسكينة حليمة تبرّد من قلقه:

- هي إيش عامله زيادة عن أولاد الناس؟.

"حبيبة طول عمرها غير شكل عن بنات العيلة، حتى هي السمراء من دونهم.. حلوة وعفشه" تضحك الجدة بوله، "تقول أبوها زرع بذرتها في ليلة غبراء" من صغرها تترك البنات وتلعب مع الأولاد، ودائمًا تلبس بنطلون وقميص مثلهم، وإذا لبست فستان قصير مرشفلة تقول حسن صبي، وعندما رجعت من الجامعة جننت أبوها وأخوها، طول الوقت خارج الدار ما حدا يعرف أين تذهب ولا من أين تأتي، وكل يوم والثاني يدق علينا الشرطي الباب:

- حبيبة مطلوبة لمقابلة المخابرات.

نقعد مخروعين نضرب أخماس في أسداس وهي ولا على بالها، قال رافعه قضية على اليهود عايزة تعمل جمعية للدفاع عن المساجين.. وظلت وراهم حتى كسبت القضية ومنعوها من السفر خارج غزة،

وما صدقنا يخرج فايز من الحبس ويلتموا على بعض.. طلعوا علينـا بفنط جديد، قال لازم يؤجلوا العـرس حتـى يتعرفـوا علـى بعـض يمكن السجن غير فايز، وأجلوا كتب الكتـاب سـنة حتـى تعرفـوا على طباع بعض.. مجانين.. حتى عرسهم كان غير شكل، قال عـرس ثـوار، لا صـمدة ولا جلـوة ولا حنـة ولا نقـش، جـابوا أصـحابهم وظلوا يرقصوا لآخر الليل مثل المجانين، وإحنا نتفـرج علـيهم مثـل الأغراب، مش بأقول لك هي وزوجها عاملين خالف تعـرف.. أيـام اليهود مش عاجبهم قلنا معهـم حـق، اليهـود طردونـا مـن بلادنـا وملاحقينا في غزة.. وأيام أبو عمار كمان مش عاجبهم الـذي صـار، قال يا بيرجعوا للمجدل يا بلاش.. "

وتضحك الجدة صفية حتى تشرق.. ويأخذك العطش إلى مزيد من حكايات تفتح الدروب إلى وطن الحكاية!! أين أنت يا محمد العابد من الحكاية، وفي أي فصل تكون؟؟

- وبعد ذلكَ يا جدة؟

- لا قبل ولا بعد، الحق عمرك يا محمد واعمل لـك بيـت وإبريـق زيت وكفاية مرمطة.

تأخذك إلى حضنها، هـي مزيونـة تعـود إليـكَ، ذات الرائحـة، ذات العبق وذات رفة القلب.. تهرب من الرجاء المتربـع علـى وجههـا.. تسايرها:

- شوفي عروس يا جدة.

- ونروح بعيد ليش وبنات العسقلاني أحلى وأكمل العرايس، والظفر لا يخرج من اللحم.

- وإيش رأيك في العروس تكون شبه فايزة ولا شبه حبيبة؟

تضحك الجدة صفية حتى تشرق:

- كله إلا الشعنونة، انت لازمك عروس ست بيت.

وتلفتت من حولها وكأن أحد يتنصت عليهما وهمست:

- ومش سمراء.. بيضاء مثل طلّة الصبح.



- انتهى -

مايو ٢٠٠٧





شمس للنشر والإعلام

رؤية جديدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر، تم تأسيس "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، ومابين تحقيق رسالتها الثقافية.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له؛ في النهاية؛ مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.



غريب عسقلاني

- قاص وروائي فلسطيني من مواليد المجدل/ عسقلان عام ١٩٤٧
- حاصل على بكالوريوس الاقتصاد الزراعي من جامعة الإسكندرية ١٩٦٩
- شغل منصب مدير الإبداع الأدبي في وزارة الثقافة الفلسطينية حتى ٢٠٠٧
- يكتب الرواية والقصة القصيرة والمقالة الأدبية.
- نشر حتى الآن ١٠ روايات ، ٦ مجموعات قصصية.
- نشر أعماله في الدوريات والصحف الفلسطينية والعربية
- ترجمت بعض أعماله إلى الإنجليزية والفرنسية والروسية والألمانية.
- حائز على جائزة القصة القصيرة من جامعة بيت لحم، عام ١٩٧٧
  وجائزة القصة القصيرة من اتحاد كتاب فلسطين، عام ١٩٩١

- البريد الإلكتروني : asklani47@hotmail.com


شمس
للنشر والتوزيع
(+٢) ٠١٨٨٨٠٠٦٥   (+٢) ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤
www.shams-group.net